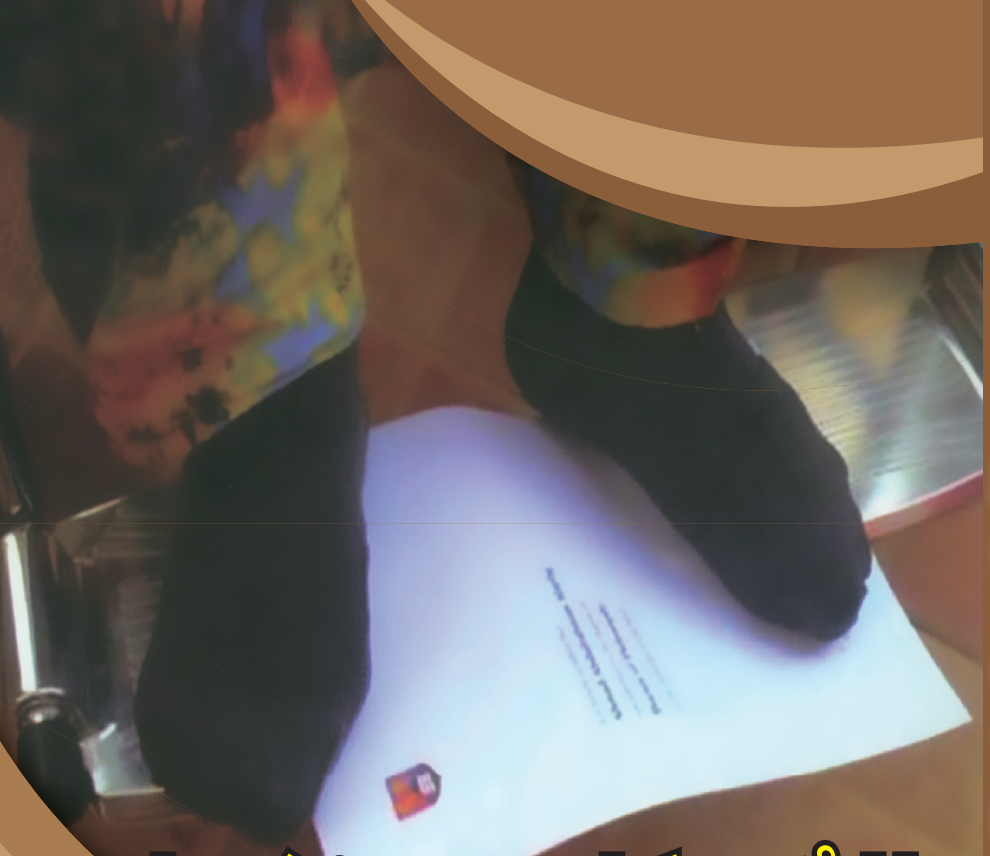

المُهمَل من ذكريات طالب تنبل

سيرة دراسية من الابتدائية إلى الدكتورية

أحمد بن عبد الرحمن العرفج

المُهمَل من ذكريات طالب تنبل

أحمد بن عبد الرحمن العرفج

المُهمَل من ذكريات طالب تنبل

كتابك هذا لو قرأه كل طالب نجاح لما يئس ولا أسِف ولا شك في لطف من قال إن مع العسر يسرا.
يا أحمد، إني أهنئك على هذا الموقف الذي اخترته لنفسك، لأنك تقرأ بنهم وتجادل بإدهاش وتحاج بإعجاز -من يملك وقته يملك كل شيء.

عبد الرحمن المعمر

عندما ودعت أحمد في المطار، في طريقه إلى لندن قلت له: ماذا تتمنى؟ قال: أتمنى أن أحصل على شهادة الدكتوراه وأمي على قيد الحياة، وأضعها تحت قدميها حتى تفرح. والحمد لله أن تحققت للعرفج هذه الأمنية؛ إذ حصل على الدكتوراه من "برمنجهام"، وفور وصوله إلى السعودية طار إلى بريدة، ووضع الشهادة تحت قدمي السيدة «لولوة العجلان»، وجاهر بذلك، وأعلنه عبر مواقع التواصل الاجتماعي، لذلك أنا فخور بصديقي التنبل.

على العلياني

المهمل من ذكريات طالب تنبل

أحمد بن عبدالرحمن العرفج

.indd 1 20/02/2019 10:20:24

[illegible].indd 2 20/02/2019 10:20:24

مع شديد المراس أشم المعطاس
(من المهد في طريقه إلى اللحد)

هذا كتاب ينطق بالذكريات، روى فيه كاتبه وممليه أحمد بن عبدالرحمن العرفج قصة حياته، من بداياته في مسقط رجليه ولا أقول رأسه، فما شهدنا مولده ولا هو وعاه، لكنه حدثنا عنه ورواه على طريقة طه حسين في الأيام، ناولني مسودة الكتاب وطلب أن أكتب مقدمة له وهذا من حسن ظنه بأخيه وإلا فلا عطر بعد عروس كما تقول العرب. أحمد لا يحتاج إلى تقديم فقد سبقته سمعته في الأوساط وشهرته في الآفاق، تصفحت الكتاب وتأملته ثم حملته معي في سفري من الساحل إلى الداخل لعل الله يفتح علي بشيء أقوله، فرغت له ساعات في الضحى ماذا عسى أن أقول وكاتبه شخص غير مجهول، ولما خشيت أن أفسد على القارئ متعته قلت أجعلها جزءاً من ذكرياتي معه (فلا يهان الضيف ولا تفنى الغنم).

في صورته التي خرج بها على الناس يشبه الدكاترة زكي مبارك الذي سماه الحسن الزيات (الملاكم الأدبي)، وما أحمد عنه ببعيد، خاصة بعد أن اعتمر القبعة كأنه زكي في شبابه بباريس، وإن كان يشبهه في معاركه وجولاته وسفراته وغزواته ومفاجآته ومغامراته.

.indd 3 20/02/2019 10:20:24

إنه قارئ نهم يهضم ما يقرأ، وكاتب متنوع فيما يتناول ويطرح، ومحاج متعب لمن ابتلي به، يشيح الريق ولا يرق، وينشف الحلق ولا تصل معه فيما دق إلى حق.

لكن إذا انقلب الجو إلى الإيناس، فحدّث عن النديم، وتحدث عن الليالي والسمار، إنه ابن حارة، وجليس يفهم بالإشارة، فقلبه كيف تشاء لكن لا تحاول أن تنقلب عليه خذه كما هو، مثل تناول أطايب الفواكه والغلال بقشرها وبذرها وبزرها.

مشكلة أكثر الناس أنه يريد صديقاً مفضلاً له وحده، وهذا ضد طبائع الأشياء وقانون الخلق وناموس الخليقة والحقيقة ومشيئة الخالق سبحانه. (وقد خلقكم أطوارا).

يوم فكر في التحرر من قيد الوظيفة الحكومية إلى فضاء الانعتاق والحرية قلت له: لاحظ أن في تعابير الدوائر الرسمية عبارة (يطوى قيده) كان مكتفاً مغلولاً فأصبح طليقاً يسير في الأرض مرحاً، لقد انحاز أحمد إلى فريق الحرية، ولو كان من المتكلين. بل المتواكلين لحاول أن يلعب على الحبلين ويدعي القدرة على الجمع بين عملين متناقضين، ليكسب قرشين، ليكون أشعب مضروباً مرتين.

انحاز أحمد إلى الحرية فاختار الفطرة، من هنا بدأت حياته الفكرية الحقيقية مثل الشاعر القروي وميخائيل نعيمة وعباس العقاد وأبي العلاء المعري، فلا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، حاول الكثير

.indd 4 20/02/2019 10:20:24

إثارته والدخول معه في معارك فما أَبِه بهم، وصمد لهم، وتدرَّع بقول شاعره القوي القروي (رشيد سليم الخوري):

أبداً تحاول يا فلان إثارتي

ليقول عنك الناس خصم فلان

لن يستحق عداوتي إلا الذي

عاديته أنا لا الذي عاداني

إنها الكبرياء لا التكبر. فكم سعى غير واحد وحاول وكابد ولا أقول (جاهد) بل جاحد وأنى له التناوش من مكان بعيد.

فيه إصرار على مواقفه ولو خالف الكثير ممن يلقى، ومن قال إن الكثرة على حق والله يقول: ولو تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، إن وهم الأكثرية ولعبة الأصوات والصناديق ليست دائماً إلى الحق طريق.

عرفت أحمد مع رهط غير مفسد، لكنه عرّفني على الكثير من الكتب التي تفيد، وأهداني بل هداني للطيبات من المؤلفات.

أكرر لأحبائنا الشباب الذين يلهثون ليكونوا أدباء وكتاب مثله. اقرؤوا، اختاروا الجيد وتجنبوا الرديء، دخلت الكثير من البيوت فما وجدت فيها غير الصحف والمجلات يشترونها بالمئات من الريالات، وفي آخر الأسبوع يقذفونها في براميل المهملات، ويتجرؤون ليكونوا أدباء وكتاب، لا يا أحباب فأحمد وأمثاله من الجادين لم يصلوا إلا على جسر من المشقة وقنطرة من التعب:

.indd 5 20/02/2019 10:20:24

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها

تُنال إلا على جسر من التعب

أحمد طوحت به الدنيا، وتقاذفته المدن والجهات والأقاليم، ولد في القصيم، وعاش يفاعته ودراسته بالمدينة، انتقل إلى الدمام. درس وعلم أبناء البادية في المضارب والهجر، ونال الدكتورية من بريطانيا، واستقر أخيراً في ثغر الحجاز (جدة) الذي أجده غير بعيد عن نادي الاتحاد، فأصبح كأنه (أخو فلاوت غير أشعث أغبر كأني أقرأ الشيخ أحمد عبدالغفور عطار في كتابه الطريف بين السجن والمنفى).

يا أحمد كن كجدك الأحنف بن قيس سيد بني تميم، وقف مع كل صاحب رأي سليم، كما وقف الله معك، كتابك هذا لو قرأه كل طالبِ نجاح لما يأس ولا أسف ولا شك في لطف من قال إن مع العسر يسرا.

يا أحمد إني أهنئك على هذا الموقف الذي اخترته لنفسك، لأنك تقرأ بنهم وتجادل بإدهاش وتحاج بإعجاز، من يملك وقته يملك كل شيء.

يا صاحبي: لقد سردتَ هنا فقط سيرتكَ وذكراك الدراسية، أما أنا، فسأتوسع أكثر وأسرد للناس ذكرياتي الغنية معك، وأسألك:

أين بالله عليك جولاتنا على مكتبات الشام، أين جلساتنا عصر كل يوم في ندوة مجلة الثقافة الدمشقية لصاحبها الأديب والشاعر الكبير مدحت عكاش، أين زوار تلك الدار وتلك الظلال والأشجار، أين تلك الوجوه الضاحكة المستبشرة، أين تلك الأساطين من أمثال العالم الموسوعي الأمير يحيى

□□□□□□ □□ □□□□□□ □□□□ □□□□.indd 6 20/02/2019 10:20:24 □

الشهابي والطبيب النطاسي الأديب الشهير الدكتور عبدالسلام العجيلي، أين رئيس تحرير مجلة المعرفة السورية الذي كان يشارك، نسيت اسمه الآن ولم أنس رسمه، أين تلك الوجوه لسيدات وآنسات أديبات طريفات، أين تلك الدار لقد أزيلت وأدخلت ضمن مباني فندق الفورسيزن وا حسرتاه، لقد أغلق الباب وتفرق الأصحاب وكسرت الأباريق والأكواب.

ثم انقضت تلك السنون وأهلها

فكأنها وكأننا أحلام

أين أيام وليالي دمشق وسمرها وسمارها، أين سعينا بين حاراتها القديمة وضواحيها وسواقيها، أين مقاهيها وظلال دواليها وسهرات لياليها.

سلام من صبا بردى أرقُّ

ودمع لا يُكفكف يا دمشقُ

لقد أيقظت الذكريات وفجرت المواجع وجرت بالدمع الفواجع.

أين زينة الجلسات الشاعر المطرب والموسيقي المعجب (فؤاد بركات)، أين الأخوة واللدات؟!

أعود إلى ذكريات الجولات على المكتبات وشراهتك في الشراء ودقتك في الانتقاء، لا كما يفعل البلهاء في معارض الكتب عندنا، يخمخم مجموعات كثيرة وأثقال كبيرة ثم يمشي يتأرجح بينها، يصفها في نوافذ مجلس الدار لا يقرأ منها لكن ليقال:

.indd 7 20/02/2019 10:20:24

وعند الشيخ كتب من أبيه

ولكن في الحقيقة ما قراها

والدليل حاول أن تناقش أحدهم وسترى الفاجعة البشرية والعاهة الثقافية.

أين ذكريات اللاذقية وزيارة أدبائها وشعرائها والغدوات والروحات والغبوق والريوق في قمم جبالها وأعالي تلالها، أين مقاصفها الجميلة وهواؤها وماؤها أين بلدة عين العروس وليالي شواطئ طرطوس وديار بدوي الجبل وجبلة ابن الأيهم وشط البسيط، أين أيام معرض الكتاب الدولي بدمشق وتلك الوجوه، أين البشاشات وأحفاد السراة والباشوات، أين بالله عليك تلك التجليات والابتسام، أين ذكريات الشام؟

ذم المنازل بعد منزلة اللواء

والعيش بعد أولئك الأعلام

ماذا أقول وماذا أدع فلم يعد في القوس منزع (شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي).

ولن أنسى زيارات متعددة للمدينة المنورة ومزاراتها ومساجدها وسماع صوت ديكها بالغلس وأذان الفجر من الحرم النبوي الشريف، كان ذلك عدة مرات رأينا بعض قاماتها وهاماتها قبل رحيلها مثل أديبها محمد العيد الخطراوي وشاعرها ومغنيها حسن الصيرفي في جلسته الفيروزية ومتكئة في العصرية. أين جلسات ندوات الهاشمية وقيلات بساتين قباء والعباسية.

.indd 8 20/02/2019 10:20:24

لا أريد أن أجعلها ذكريات بكائية لا مقدمة أدبية، وهل سالت الدموع في أكثر أبواب الأدب العربي إلا على ذكريات الشباب وفراق الأحباب ومدارج اليفاعة والصبا، فما لكم كيف تحكمون؟!.

ما أطلت في إعداد هذه المقدمة أبتغي لحظة صفاء أو ساعة تجلّي فما أدركت الصفاء ولا حضر التجلي لأن كل ما حولي وحولكم في هذه الأيام لا يوحي بما يلهم أو يسعف بما أريد.

ولما خشيت الفوت قلت أجعلها هكذا جزءاً من سيرته وتحية لشخصيته وشيء من ذكر قليل.

الطائف

عبدالرحمن المعمّر

.indd 9 20/02/2019 10:20:24

[illegible].indd 10 20/02/2019 10:20:24

فخور بصديقي "التنبل"

مكة ... المدينة ... جدة ... بريدة ...الرس ... عنيزة ...الدمام ... الرياض ... رامس قيت ... كاردف ... برمنجهام ... لندن ...

اثنتا عشرة مدينة مرّت بطالبنا التنبل ومرّ بها أيضاً، لكنه مرور مختلف لا يشبه المرور في نص البدر، الشادي به صوت الأرض طلال مداح عندما قال: "مرت ولاحتى تلتفت مرت، فمع صديقي التنبل كل المدن مرّت وكلها التفتت، وفي كل مدينة كان التنبل يزيد ألقًا وجمالاً وتأثيرًا، رغم قسوة تفاصيلها وآلامها وأتراحها وخيباتها، نعم التفتت كيف لا وأعظم انتصاراتها أن أهدت لنا ولأيامنا، اليتيم وعامل المعرفة وقبل كل ذلك ابن الغالية السيدة لولوة العجلان الدكتور أحمد العرفج.

الدكتور أحمد العرفج التنبل في هذا الكتاب، كما وصف نفسه في عنوان الكتاب روى لنا سيرة مجتمع بأكمله، في حقبة من الحقب لسنا بعيدين عن تأثيراتها حتى اليوم، فهو كتاب يجمع بين الرواية والسيرة الذاتية في آن، ولعل هذا له علاقة بنصائح العرفج لمريديه ومحبيه، فهو دائمًا ينصح بقراءة السير الذاتية؛ لأنها تجمع بين فن الرواية والسرد التاريخي المبني على حقائق ووقائع تاريخية مثبتة، وهذا ما فعله وأبدعه في هذا الكتاب.

.indd 11 20/02/2019 10:20:24

يحتوي هذا الكتاب على سبعة فصول، مليئة بالمعلومات والاعترافات، تقرأها فتبكي تارة وتضحك تارة أخرى، فهي تكشف لنا بأن مؤلف الكتاب، الصديق أحمد العرفج مثال للتحدي وصناعة الأمل والبهجة، فهو مليء بالقصص المحزنة لكن العرفج يرويها بفرح؛ لأنه يكره التباكي ويرى أن ذكريات الجوع والظلم وحتى آلامهما ذلك الوقت، لابد أن تنتج نتيجة واحدة، وهي التحفيز ورسوخ التحدي والدليل وجود أحمد بيننا اليوم، كظاهرة كاتبًا ومذيعًا ومؤلفًا وفاعلًا في مواقع التواصل الاجتماعي، وكل ذلك بجودة عالية بل وتطور مستمر.

هذا الكتاب يؤرّخ بشكل بديع لواقع التعليم السعودي، في العقود الثلاثة الماضية، والتي أفرزت تيارات إسلامية أصبحت محظورة اليوم، وهذا يؤكد دقة الاستشراف عند مؤلف هذا الكتاب، ولعل ذلك يكون جاذبًا ومحفزًا لوزارة التربية والتعليم ووزارة التعليم العالي للاستفادة من الكتاب والتعامل معه بوصفه شهادة على العصر وجرس إنذار.

يحسب للعرفج أنه لم ينجرف مع أي تيار ديني خلال تلك العقود، وذلك يعود لثقافته العالية وقراءته المتعددة، وهو هنا يعطي درسًا في ابتكار الحلول لحل قضايانا الفكرية، كأنه يقول أعطوا لأجيالنا فرصًا لسماع وقراءة الآراء الأخرى، بمباركتنا نحن والنتيجة لن تخرج عن إنتاج شخصية، مثل العرفج وطنيًّاً مثقفًا مسلمًا منتجاً محبًّا للحياة.

أيضًاً يحسب للعرفج المؤلف، أنه وثّق الأحداث بالأسماء، وهنا تظهر علاقات اليتيم الكبيرة، فسنجد هنا أسماء في الفن والتجارة والرياضة،

.indd 12 20/02/2019 10:20:24

سنجد أمراء ووزراء وأيضًا فقراء، لكن القاسم المشترك في ذكرهم ليس فقط التوثيق، بل التكريم والشكر والاعتراف بالجميل لهؤلاء، واللافت هنا أن العرفج لم يذكر قصص من أساء له أبدًا وهذا نبل منه.

قلت في البداية إن الكتاب مليء بالاعترافات، فالعرفج اعترف بسرقة أول مقال نشر في المدينة، وهو صفة صلاة النبي من كتاب بلوغ المرام، اعترف أيضًا بأنه تشرّب منهج الإخوان المسلمين، حيث قال: "في ذلك المعسكر تشربنا منهج الإخوان دون أن نشعر، اعترف بالجوع والتشرد والفقر والفشل وحتى التبول اللاإرادي.

انتقد باكرًا عدم الاهتمام بالمواد اللادينية في المعهد العلمي، إذ يقول "مدرس الحديث كان يدرسنا جغرافيا وهذا اختلاط بين المادتين والتخصصين ومع هذا لم يجد هذا الاختلاط أي معارضة".

بقي أن أقول عندما ودعت أحمد في المطار، في طريقه إلى لندن قلت له ماذا تتمنى ؟، قال: أتمنى أن أحصل على شهادة الدكتوراه وأمي على قيد الحياة وأضعها تحت قدميها حتى تفرح، والحمد لله أن تحققت للعرفج هذه الأمنية، إذ حصل على الدكتوراه من برمنغهام وفور وصوله للسعودية طار إلى بريدة، ووضع الشهادة تحت أقدام السيدة لولوة العجلان وجاهر بذلك وأعلنه عبر مواقع التواصل الاجتماعي، لذلك أنا فخور بصديقي التنبل.

الإعلامي: علي العلياني

الرياض – نوفمبر ٢٠١٤

.indd 13 20/02/2019 10:20:24

الفصل الأول

من المهد في طريقه إلى اللحد

إنها تمام الساعة الثالثة ليلاً حسب توقيت التعب والولادة والشقاء.. في سنة ما بين ١٩٦٦ إلى سنة ١٩٧٧م في مدينة قصيّة اسمها بريدة، وسط السعودية، وبجوار الجامع الكبير، في هذه المدينة ولدت كأني غلام وأطلقوا عليّ اسم أحمد.

الحقيقة لم تكن الولادة سهلة، بل كانت عسيرةً حسب رواية الرواة، فأمي – رحمها الله – لا حول ولا قوة لها إلا بالله.. وأطفالها الصغار حولها كل منهم له حاجاته واحتياجاته.

خرجت إلى الدنيا وتخالط صراخي مع أذان صلاة المغرب الذي كان خافتاً، حيث إن مكبرات الصوت ما زالت محرّمة في تلك المدينة المنسية.

خرجت إلى الدنيا وأمي – المسكينة – حائرةٌ ماذا تفعل بهذا اليتيم الذي يعد أقدم يتيم في العالم، حيث مات أبي – رحمه الله – قبل ولادتي بسبعة أشهر.. وللأمانة فقد صرّحت لي أمي الغالية بأنها تمنَّت أن أولد ميتاً، نظراً

.indd 15 20/02/2019 10:20:24

لقسوة الحياة في ذلك الوقت، وقالت: يا ولدي، والله الموت أرحم من قسوة الجوع والخوف واليتم.

خرجت إلى الدنيا، فحار القوم في تسميتي، قالت أمي: كنّا سنطلق عليك اسم عبدالرحمن على اسم أبيك، ليكون اسم عبدالرحمن مضروباً في اثنين حتى أجمع الحسنيين "اسم أبي والتعبد في الاسم"، وخير الأسماء ما حُمّد وعُبّد..!

لم يستحسن الاسم الأخوال والأخوات، لذا أطلقوا عليّ اسم أحمد لعله يكون قريباً من سورة "الحمد لله رب العالمين"..!

وقبل الاسترسال في سيرة الطفولة سأتحدث قليلاً عن مراسم العزاء التي صاحبت وفاة والدي – حسب ما سمعته من أمي الحبيبة –، قالت: مات أبوك يا جنيني.. وهو في الثمانين، لذا دخلنا في مرحلة العزاء ومدينة بريدة كلها جوعٌ وجفاف، ولكن الرّجل الفاضل الذي أصبح فيما بعد مفتي المملكة العربية السعودية ورئيس مجلس القضاء الأعلى فيها، الشيخ عبدالله بن حميد، كان من أعز أصدقاء أبيك.. لهذا تكفّل بإحضار العشاء طيلة أيام العزاء.. وكأنه تطبيق لحديث المصطفى – صلى الله عليه وبارك – حين قال: "اصنعوا لآل جعفر أو "عرفج" طعاماً فإنّ لديهم ما يشغلهم"..!

انتهى العزاء، ووضعت الوالدة ما في بطنها، وخرج أحمد إلى الدنيا، وضاق العيش وكثر الأولاد.. فرأى الوكيل على الأسرة، عمي الحبيب الكريم الغالي، أن تتزوج أمي ابنه العم حسين الذي كان يصغرها بسنوات كثيرة.. والعم حسين رجل كفيف مكافح عانى من الجدري الذي أوصله

.indd 16 20/02/2019 10:20:24

للعمى.. ثم واصل بنجابة نادرة تعليمه حتى تخرّج من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وتعيّن مدرساً.. وتلك قصة سأتي على ذكرها لاحقاً..!

تزوّجت أمي الحبيبة الصابرة المتدينة من ابن عمي حسين بعد انقضاء أربعين يوماً من ولادتي، ورزقت منه بأبناء وبنات كانوا كالورد والزهور في حياتنا، تزوّجها العم حسين وكان طالباً في الثانوية، وكانت أمي عندما يذهب إلى المدرسة تنشغل بالطبخ وإذا وجدت فراغاً تحفظني شيئاً من الكلمات والآيات والأمثال والأهازيج التي تُضخم فيَّ قيم الرجولة والأمل والاستقامة والتحدي.. ولا زلت أتذكر أن أمي الحبيبة كانت تدرسني سورة "تبت يداً أبي لهب وتب"! وأنساها بسرعة، فإذا سألتني في المساء قائلة: ما السورة التي حفّظتها لك هذا الصباح؟ أحار في الإجابة وأقول: "حفظتني السيارة اللي تشيل الحطب وتمشي".

استمر الحال على هذا المنوال.. وتخرّج عمي حسين من الثانوية وكان عمري على ما أذكر ثلاث سنوات، وبعد تخرّجه أحبّ أن يكمل في جامعة الإمام في الرياض "كلية الشريعة"، إذ ليس هناك خيارات أخرى.

ذهبنا إلى الرياض وسكنّا في حي العطايف، ذلكم الشارع الذي كتب عنه وفيه وله وحوله صديقنا الكاتب عبدالله بخيت روايته "شارع العطايف"..!

وللأمانة كل ما أتذكره في تلك السن وعمري ثلاث سنوات هو أذان رمضان بصوت الشيخ ابن ماجد – رحمه الله – وحادث السيارة الذي تعرضت له أختي الغالية وأصغر شقيقاتي السيدة هدى، والحمد لله لم تصب بأذى.. وكميات الذباب التي هجمت على الرياض في ذلك الوقت،

.indd 17 20/02/2019 10:20:24

حيث كنا نستخدم المبيدات في قتلها، وما زلت أستعيد قصة موتها، وكيف كنّا نحملها في سطول الماء، ونرميها في حاويات القمامة..!

في عام ١٩٧٢م – تقريباً – تخرّج عمي حسين.. وكان يرغب العمل مدرساً للبنات في بريدة كنوع من البر بأمه – يرحمها الله –، لكن المؤسسة الدينية بالقصيم – حينذاك – كانوا يرفضون أن يدرّس بناتهم "مدرس كفيف"!

وصلنا المدينة عام ١٩٧٢م وكان تعيين عمي في حارة من بقايا "الأتراك" اسمها "باب الكومة" لا تبعد عن الحرم كثيراً..!

هناك بدأت الدراسة في المدرسة النّاصرية، التي سُمّيت بذلك نسبة إلى جمال عبدالناصر أيام الفورة الناصرية، ولكن فيما بعد تغيّر اسمها إلى مدرسة حفص بن سليمان لتحفيظ القرآن.

دخلتُ المدرسة وكان أغلب المدرسين من الجنسية الفلسطينية، وكانوا مثل فرعون، يسوموننا سوء العذاب ويضربون على الخطأ والصواب.

دخلت المدرسة ومعي قريب لي دخل مستمعاً لأنه لم يصل للسن القانونية لدخول المدرسة.. والغريب في نهاية العام نجح قريبي المستمع ورسبت أنا.. ولا زلت أتذكر أن المطرب المعروف الصديق طلال سلامة كان معنا في تلك المدرسة، وكان صوته عذباً من تلك الأيام، ويتولى أداء بعض الأناشيد التي في كتب المطالعة والنصوص.

.indd 18 20/02/2019 10:20:25

كنت مسروراً بدخولي للمدرسة، وأتذكر أنني من أول أسبوع في الدراسة، قلت لأمي – رحمها الله –: يا ماما، ما شاء الله ما غبت ولا يوم من بداية الدراسة!

وبعد مرور شهر من الدراسة وأنا في الصف الأول الابتدائي أخذني الغرور إلى منطقته، وقلت لأمي: ما شاء الله ما رسبت ولا سنة!

أكثر من ذلك، كنت على جانب كبير من الذكاء، ولا زلت أتذكر بقايا ذكائي في تلك المرحلة، حيث سألني المدرس قائلاً: من منكم يريد الذهاب إلى الجنة؟ رفع الطلاب كلهم أصابعهم إلا أنا، تعجّب المدرس من ذلك، وقال: لماذا لا تريد الذهاب إلى الجنة يا ولدي؟! قلت: إنّ أمي قالت لي: "يا وليدي، إذا خرجت من المدرسة تعال إلى البيت بسرعة.. ولا تذهب إلى أي مكان آخر"!

في تلك الأيام كنا نسكن في أطراف باب الكومة في حارة تسمى "حارة الأحامدة" وهي منسوبةٌ إلى جماعة من البدو النبلاء من قبيلة حرب.. كانوا يسكنون فيها ويسمى الواحد منها أحمدي "ليست من البساط الأحمدي" طبعاً، ولا من ميناء الأحمدي في الكويت، بل فخد من قبيلة حرب المعروفة.. ومن هذه القبيلة صاحبنا الصحفي مطر الأحمدي، رئيس تحرير مجلة "لها" سابقاً..!

سكنّا في ذلك الحي البسيط بأهله الطيبين، ولا زلت أتذكر كيف كنّا نتحلّق حول صنبور المياه أو كما يسمونه في الحجاز "كباس الماء" الذي

.indd 19 20/02/2019 10:20:25

يسقي الحارة ودوابها، وفي الليل تضاء الحارة بالأتاريك "الفوانيس" التي يوزّعها رجل يمني كبير الهمة وشديد الذمّة!

جلست بين أمي وأخواتي وأهلي سنةً كاملة وفشلت في الصف الأول.. ولكن في عيد عام ١٩٧٢م حصل حدثٌ كبير، غيّر مسار حياتي ونقلني من الضفة الأولى إلى الضفة الأخرى.

في ذلكم العيد زارنا خالي إبراهيم العجلان – وهو من أحبّ الناس إلى والدتي رغم أنه أخ غير شقيق لها، زارنا وبارك لنا العيد السعيد، ولكنه رآني (رحمه الله تعالى) في حالة مزرية وثياب رثة تتطاير منها رائحة النوم ومبللة بالتبوّل اللاإرادي، عندها اتخذ قراراً غيّر مسار حياتي، وقبل الدخول في القرار، دعوني أكتب لكم سطراً عن خالي إبراهيم العجلان لأنه رجلٌ نادر في ذلك الزمان وغيره من الأزمان.

كان خالي هذا – رحمه الله – رجلاً وقوراً ورغم أنه مات عام ١٩٧٨م على ما أظن، إلا أن صورته عامرةً في قلبي حاضرةً في ذهني، إنّه رجلٌ نحيل متوسط الطول أبيض اللحية سليم المحيّا، تحبه من أول نظرة، طاهر الثياب والإهاب، أنيق المظهر والجوهر.. كريمٌ جواد يحب أهله ومجتمعه، ويحبه كل من سكن بجواره، وعرفه أو تعرّف عليه.

كان رجلاً عفيفاً نبيلاً مترفّعاً عن كل شبهة، وقد سمع من الشيخ المحدّث في الحرم النبوي عبدالرحمن التركي – رحمه الله – أن المدينة المنوّرة كلها وقف ولا يحوز التملك بها، لذا مات وهو لم يملك شبراً فيها – إلا بيته

.indd 20 20/02/2019 10:20:25

الذي اشتراه وقد كتبه وقفاً عندما مات – رغم أنه كان يستطيع شراء سدس المدينة.

خالي إبراهيم كان – رحمه الله – يجهّز فطوراً يومياً في الحرم المدني – رغم أن الناس كانت تعاني الجوع والفقر في البلاد كلها، ليس ذلك فقط، بل كان يدعوهم من بعد صلاة المغرب إلى تناول العشاء في منزله في حي المصانع، وقد كان يحضر العشاء قرابة ٥٠٠ شخص من العامّة والبسطاء والفقراء، أما هو فكان يرحب بهم طيلة فترة جلوسهم على السفرة، ثم يكتفي هو بتناول صحن من الشوربة.. كان يعلّمني ذلك الكرم، وكان يطلب ممن يغرف الأكل ويعده بأن يضع صحن شربتي بجواره حتى أردد كلمات الترحيب التي يجهر بها أمام ضيوف الرحمن.

حقاً لقد كان خالي شخصاً نادراً، رغم كثرة أخوالي إلا أنني لم أُفتن بشخص من الأخوال مثل فتنتي بخالي إبراهيم، ثم خالي علي، الذي سيأتي ذكره لاحقاً.

لقد كان خالي إبراهيم ورعاً محبّاً للخير يفعله أينما وجد إليه سبيلاً.. وقد كان أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه الشيخ عبدالعزيز بن باز، حيث كان يومها رئيساً للجامعة الإسلامية، وكان يأتي لنا في بيت خالي ونحن نذهب إلى منزله بين الفينة وأختها، كما هي عبارة شيخنا مصطفى لطفي المنفلوطي، ومن مزايا هذا الخال أنه يرغب فيما عند الله في كل شؤونه، ولا يحب الرياء، وأتذكر أنهم كانوا يسمونه "صديق الجنائز" ومن المستحيل أن يفوّت أي جنازة يصلى عليها، حيث كان يذهب "مشيعاً" سواءً عرف

.indd 21 20/02/2019 10:20:25

الميت أم لم يعرفه.. وكان رحمه الله يصحبني معه في جنائز المغرب والعشاء لتقوية قلبي ولتذكيري بأن مصير الموت مصير كل حي.

ومن المعروف أنّ الجنائز في المدينة لا يُصلى – في الغالب – عليها إلا في المسجد النبوي.. وكانت كثيرة جداً، ولها مسارات خاصة في أزقة المدينة القديمة يعرفها كبار السن بـ"درب الجنائز".

وأريد أن أختم حديثي عن خالي الحبيب – رحمه الله – بقصة، فقد كنت في عام ١٩٩٣م – على ما أظن – من رواد ثلوثية الدكتور الصديق الشريف نايف الدعيّس، ووافق مرة أن كان الضيف هو الشيخ المحدّث في الحرم المدني أبو بكر الجزائري، فقلت في نفسي: إنها فرصةٌ برتقالية سنحت لي لكي أسأله عن خالي إبراهيم العجلان، حيث أتذكر من أيام الطفولة بأننا – خالي وأنا – كنا نحضر دروسه وأعلم أنه – متّعه الله بالصحة والعافية – من أقرب الناس إلى خالي.

سألته عن علاقته بخالي فقال في البداية – والله على ما أقول شهيد –: يا أخ أحمد إنني أرى في وجهك خيراً كثيراً، وكنت أسأل نفسي عن هذا الخير ومصدره، ولكن الآن عرفت طالما ذلكم الرجل هو خالك..!

لقد كان الشيخ الجزائري يتحدّث وأمامه أمّةٌ من الناس، وحديثه مسجل في الثلوثية، قال: يا أحمد، لقد حججت قبل سنوات طويلة وبينما كنت في أيام الحج وخاصةً ليلة المبيت في مزدلفة – حاولت النوم، لعلي أرى الرسول صلى الله عليه وبارك في المنام.. فنمت وإذا بي أرى نفسي مع مجموعة من الأصحاب ومنهم إبراهيم العجلان، وجاء الرسول صلى الله عليه وبارك ومرّ

.indd 22 20/02/2019 10:20:25

بنا، ونادى إبراهيم العجلان وأخذه معه في دابته، وذهب، ثم علّق الشيخ على القصة وهو ينظر إلى الحضور، ولا ينظر إليَّ، قائلاً بلغته المحببة: انظروووا.. انظروووا إبراهيم العجلان رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ثم عجّ المجلس والحضور بالتكبير.

ثم علّق صاحب المجلس الدكتور الصديق نايف الدعيس، والشيخ علي العمري –الذي يقرأ على الممسوسين ثم تقاعد عن القراءة – علَّقا على الشيخ الجزائري، قائلين بأنهما كانا ممن يرتاد فطور الشيخ إبراهيم في أيام رمضان والعشاء في منزله رحمه الله.

لقد استطردنا كثيراً ولكن خالي إبراهيم يستحق كتابا كاملاً، لذلك لنعد إلى موضوعنا وسيرتنا.

جاء خالي في صبيحة العيد وزارنا في حارة الأحامدة ورأى حالتي المزرية والرّثة والمبلولة، فطلب من أمي – رحمها الله –، أن يأخذني لأعيش معه ومع أولاده، كانت أمي وما زالت عزيزة النفس، أبيّة لا تشكو لغير الله، فرفضت ذلكم العرض الذي يسيل له اللعاب، كما يقولون.

كان خالي كبيراً في كل شيء حتى في طلباته، لذا لم يظهر عطفه علي عند أمي – رحمها الله – بل تواضع – كعادته – وقال لأمي: كما تعلمين يا أم يحيى – وهي كنية أمي – أنا رجل ليس لدي أولاد صغار، لذا أحتاج أحمد – الغلام الصغير – لكي يقضي حوائجنا ويدخل على نسائنا ويصبح غلاماً لنا!

.indd 23 20/02/2019 10:20:25

هذه الجمل دغدغتْ مشاعر أمي الحنون، وجعلها تتنازل قليلاً عن كبريائها القوي.. ثم أكمل خالي قائلاً: يا أم يحيى، إننا فعلاً نريد أحمد ابناً لنا وأنتم لديكم الابن يحيى وأخواته وإخوانه، وهذا عدل بيننا وبينكم!

في هذه اللحظات وافقت الست الوالدة كما يقول أحبابنا المصريون.. وذهبت مع خالي مشياً على الأقدام من حارة "الأحامدة" إلى حارة "المصانع" وكل ما أملك من حطام الدنيا "بقشة" من قماش فيها ثوبٌ قديم يكاد كمّه يتفتفت من كثرة ما أمسح به خشمي السيال.

وصلت إلى بيت خالي، كان الكل محباً لي، مرحباً بي، ولكن كانت ابنته هيلة "أم فراس" الأبرز والأميز والأقرب إلى الاهتمام بي وبرعايتي لعلمها أن "البرّ بي" نوعٌ من البرّ بأبيها الذي كان يحبني حباً جزيلاً.

جئتُ إلى بيت خالي، وأنا رثُّ الملابس وراسبٌ في الصف الأول ابتدائي، لذا بدأت صفحةً جديدةً مع نفسي ومع دراستي ودخلت مدرسة البراء بن مالك الابتدائية بحي المصانع.

دخلت هذه المدرسة التي انطلقت فيها كالسّهم الملتهب وكأني اللاعب ماجد عبدالله حين يتجه إلى المرمى، كانت دراستي جيّدة، أدرس في الصباح وفي العصر أذهب مع خالي إبراهيم العجلان إلى محل العطارة الذي يسترزق منه، ثم بعد المغرب أذهب معه إلى الحرم لنجلس مرةً إلى دروس الشيخ أبي بكر الجزائري ومرةً إلى حلقة تحفيظ "قرآن كريم"، كان يدرّسنا فيها رجلٌ غليظٌ شديد، نسمّع له القرآن كلنا دفعةً واحدة، ومن الغريب أنه يستمع إلينا جميعاً في وقت واحد، ويصحح لأي منا إذا أخطأ..

.indd 24 20/02/2019 10:20:25

ولم أكن أصدّق أنّ الرجل من الممكن أن يكون له قلبان في جوفه حتى شاهدت هذا الرجل فعلمت أنّ الرجل من الممكن أن يحمل قلوباً في جوفه.

لقد كان رجلاً غليظاً.. وإذا انتهينا من التسميع يخرج من جيبه "سعوطاً" وهو خليط من الأبازير التي تجلب العطاس، ويستنشقها، ثم يبدأ في العطاس، ونحن نشمته، ويستمر هذا الفعل وقتاً طويلاً، وقد سألته ذات شجاعة قائلاً: لماذا تتعمد العطس؟ فقال بلهجة حادّة: يا غلام، إنني أستجلب الرحمات منكم، حين تقولون لي إذا عطست: "يرحمك الله"..!

في تلك المرحلة من عمري، أتذكر أنني عملت بوظيفة "مطيّر حمام" حيث كان الحرم يضم في بعض أنحائه "حصوة" تجلب الحمام، وكان هذا الطائر المسالم يؤذي المصلّين ويلوّث الحصوة، لذا استأجروا له من يطيّره من "الحصوة" مقابل "جُعل" مالي وراتب يحسب بنظام الساعة.. وقد عملت بوظيفة "مطيّر حمام" كأول وظيفة في حياتي، ولا أذكر – الآن – من الذي وظّفني ومن الذي كان يعطيني الراتب. ولكن على الأرجح أنّ الذي وظّفني خالي إبراهيم للاستفادة من "كثرة الحركة" التي كنتُ أشتهر بها!

في تلك المرحلة.. تعلّمت القراءة والكتابة.. وقد كنت طالباً سويّاً أذهب إلى المدرسة وأعود في الظهيرة، وأفعل واجباتي وأنجز فروضي المدرسية بانتظام، وأعاني من بعض المواد ولكن ابنة خالي "أم فراس" – ربي يحفظها – كانت تسهّل الصّعاب وتفتح لي الأبواب.

لا زلت أتذكر أنني لم أفهم مفهوم الإحسان إلا على يدها فقد كانت مفردات وكلمات التعريف صعبة على غلام مثلي لم يصل للثامنة أو التاسعة بعد.

.indd 25 20/02/2019 10:20:25

نعم، كيف لغلام صغير أن يفهم قولهم: "الإحسان: أن تعبد الله، كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك".. هذا الكلام "المموسق" يشبه اللغة الإنجليزية أو الألغاز لطفل مثلي!

كنت أجلس عند بيت خالي أيام الدراسة، وإذا جاء مساء الخميس حملني ابن خالي العزيز سليمان إلى أهلي لأجلس معهم حتى مساء الجمعة.. وفي تلك الأيام كانت الناس تعمل وتدرس يوم الخميس!

لقد كانت فترةً براقةً، وأنا غلامٌ مدلّل، يعيش عند خاله ويأكل "حلاوة طحينية" وبسكويت أبوقشطة، ويفرح بأربعة قروش مصروفًا مدرسيًا أشتري فيها "غريّبة" و"ميرندا" وأحمد الله على النعمة، لأن غيري في حارة الأحامدة لا يأكل إلا الهواء، وأحياناً الغبار!

في تلك المرحلة كانت الذكريات كثيرة ولن أقدر على ذكرها جميعاً، ولكن أتذكر أنني اكتشفت "موهبة تقليد الأصوات" لديّ، حين كنت في الإذاعة المدرسية الصباحية أقلّد الحمار، والديك، والكلب، بل كنت أغني في الإذاعة وقت الطابور الصباحي أغنيات المطرب القدير حجاب بن نحيت، وخاصة أغنية: بالله يا أهل العيادة، أبي وريقة شهادة أبعرضه للحبيب... إلخ.

وقد كنت أحفظ النص عن ظهر قلب، كما يقولون، نظراً لأنّ صوته كان في ذلك الوقت يملأ الأركان ويطفو على الزمان!

في تلك المرحلة، توفيت السيدة أم كلثوم وعبدالحليم حافظ، وقد شاهدت الناس وهم يبكون عليهما.. في تلك المرحلة كنت أدرس في العصر دروس تقوية، وذات يوم ذهبت للمدرسة عصراً كالعادة فوجدت المدير الأستاذ

.indd 26 20/02/2019 10:20:25

عزيز عوض الله الأحمدي – رحمه الله – واقفاً في الباب، وقال بصوت كأنّه حزن يمشي على قدمين: يا ولدي اذهب لأهلك – اليوم ليس فيه مدرسة، فقد توفي الملك فيصل يرحمه الله.

ذهب الملك فيصل – رغم أننا كنا نردد أغنية المطرب محمد عبده، ربنا واحد ودربنا واحد، كلنا فيصل وكلنا خالد.

بعد هذه الوفاة وذاك الحزن، كنت قد نجحت وانتقلت إلى الصف الرابع، وخالي انتقل إلى رحمة الله، فحزنتُ حزناً طويلاً، ولم أطق الجلسة في بيته بعد أن غاب نجم المنزل وسراجه المنير.

* * * *

رجعت إلى بيت أمي منكسراً حزيناً مطأطئ الرأس، وما زال أهلي يسكنون في حارة الأحامدة أو ما يسمى بـ"السيح". عدتُ – والعود أحمد – كما يقولون، وسجّلت بمدرسة حسان بن ثابت، وكنا أول دفعة نسكن مبناها الجديد "المبنى الحالي لها".. وكنت أدرس في الصف الرابع الابتدائي، ولا زلت أذكر من زملاء الدراسة الصحفي في جريدة "عكاظ" سامي المغامسي، وقد كان من أقرب الأصدقاء لي، وكنا نذاكر المواد في غرفة خشبية استحدثتها في "حوش منزلنا".

في الصف الرابع كنت تلميذاً "لا بأس بي"، غير أنني تعلمت التدخين عبر أعواد العنب التي كنا نصنعها بأنفسنا ثم ندخن بها، والحقيقة أننا لم

.indd 27 20/02/2019 10:20:25

نكن نشعر بمتعة حين تدخينها، ولكنها كانت حركات مراهقين، يريدون أن يشعروا بأنهم أصبحوا كباراً وزعراناً..!

مضت هذه السنة على خير كما يقولون، بعدها وصلت إلى الصف الخامس، وأراد أخي الغالي غير الشقيق إبراهيم أن يدخل المدرسة، فلم نجد له مكاناً في مدرسة حسان بن ثابت، لذا ارتأى الأهل أن ينقلوني معه إلى أقرب مدرسة، وكان لنا ذلك، حيث سجّلنا في مدرسة "محمد إقبال" في حي السيح، دخّلنا أخي في الصف الأول وأنا في الصف الخامس، وكنا نعاني من المدرسة وسوء مبناها وبُعد طريقها، ولكن في تلك السنة سجّلت في الكشافة وأعطوني بدلةً زرقاء براقة تسرُّ الناظرين، لبستها فأرضت غروري ورضيت بالمكان والمكين..!

مرّت الأيام والشهور، وفجأةً سقطت بيد "شلّة فاسدة" أقنعوني بالهروب من المدرسة.. بحيث نذهب صباحاً، وكأننا ذاهبون إلى المدرسة وإذا غادرنا الحارة نسلك طريقاً غير الطريق المؤدّي للغرض، نلوذ إلى حيث الجبل ونختبئ فيه حتى يحين وقت الانصراف، وقتها نذهب لأهالينا كأننا عائدون من المدرسة.. نفعل ذلك وبراءة الأطفال في عيوننا.. فعلاً استحليت "العملية" وفعلتها مع أصحابي وأخي لمدة أربعة أيام متتالية!.

هي تلك المرّة التي هربت فيها من المدرسة.. ولعلّها الأولى والأخيرة، لأنني ذقت أشدّ أنواع العذاب من أهلي وذلك لسببين الأول لماذا أهرب؟ والثاني لماذا أُهرِّب أخي النبيل إبراهيم معي؟ ولم يعلموا أنني فعلت ذلك حتى لا يفضح أمري حين لا يراني في فترة الفسحة!.

.indd 28 20/02/2019 10:20:25

في تلك المرحلة من الدراسة أوّل مرة أشعر بالخوف، فقد كان المدرسون على قدر كبير من الوحشية، ولا زلت أتذكر أنني خرجت من المدرسة ذات يوم، مبلول السراويل خوفاً من هذا المدرس أو ذاك، في تلك الأيام كنا ندرس يوم الخميس، ولم أكن أحب الدراسة كثيراً، فقد كان عندي "صندقة حمام" أنفق فيها أكثر وقتي، وكنت أذهب إلى الاختبار وعقلي وتفكيري مع الحمام..! أجلس في الفصل وأنا أسأل نفسي: من الحمامة التي باضت ومن التي "على وشك".. وما مصير الذّكر الرمادي، وكيف هي أحوال الجوز المُسرْول.. إلخ.

وللأمانة، فقد كانت الدراسة صعبةً جداً، وكانت أسماء الناجحين تذاع في المذياع "الراديو".. وكنا نسمع دائماً عبارات مثل: "ثانوية الربيع، لم ينجح أحد.. مدرسة النجاح، لم ينجح أحد"! بعكس الآن، حيث تسمع عبارات مثل "مدرسة اليرموك لم يرسب أحد".

في تلك المرحلة كانت الاختبارات أربع مرات في العام لكل اختبار ٢٥ درجة.. وفي النهاية تجمع الدرجات، ومن يتجاوز الـ ٥٠ درجة ينجح..!

أيام دراستي كنت غبياً، ولا أزال أستحوذ على بعض الغباء، وأتذكر أن سؤالاً جاءنا في مادة الفقه، يقول: عدّد عشراً من مبطلات الصلاة، وكان من ضمن المبطلات "الأكل والشرب" وأنا أحببت أن أبدو ذكياً، فقسمت هذا "المبطل" إلى عشرة فقلت مبطلات الصلاة: ١ـ أكل الأرز ٢ـ أكل الرمان ٣ـ أكل المطبق... وهكذا حتى وصلت للعشرة.

.indd 29 20/02/2019 10:20:25

يا لغبائي.. فعلاً هناك حدود للذكاء، ولكن لا حدود للغباء.. كنت أنشغل في الحصص عن الدرس بكتابة قصائد في هجاء المواد وبيان صعوبتها.

مثلاً كنت أكتب هكذا عن الجبر والحساب:

من الحساب قلبي ذاب

من الجبر شالوني للقبر

من العلوم صرت أعوم

من الهندسة تعلمت اللسلسة

وكتبت أيضاً عن المواد الشرعية، وقلت – تجاوز الله عني –:

من التوحيد صرت وحيد

من الحديث صرت غثيث

من التفسير ضيعت التعبير

ولم أنسَ العلوم الاجتماعية، فقد قلت:

من التاريخ شالوني للمريخ

من الجغرافيا رجلي حافية

ومن المواد التي كانت تجعلني أقف، كما يقف الحمار أمام العقبة، المواد العربية، فانتقمت منها على طريقتي الخاصة، قائلاً:

.indd 30 20/02/2019 10:20:25

من القواعد صرت قاعد

من التعبير كدت أطير

من الخط صرت أنط

من الإملاء أصابني الإغماء

من النصوص عشقت اللصوص

في تلك المدرسة درست الصف الخامس ورسبت في مادتي: القواعد والإملاء، ثم أعدت السنة.. وأيضاً رسبت في أربع مواد هي: القواعد والإملاء والحساب والجبر.. ولكن في الدور الثاني أكملت الدراسة ونجحت بعد أن تدخلت "لجنة الرحمة" و"دفعوني" بالقوة إلى درب النجاح.. وقد كانت لجنة الرحمة مجموعةً من المدرسين تحاول أن تكون في صف الطالب وتبحث له عن مسببات حتى ينجح..!

في تلك المرحلة حصلت قصةٌ طريفة، كلما زرت أمي في هذه الأوقات ذكّرتها بها، وخلاصة القصة، أنني كنت قلقاً على نتيجتي وأنا في الصف الخامس الابتدائي، وكانت النتائج ستظهر يوم السبت، فذهبت عصر الجمعة إلى المدرسة، ووجدت أحد المدرسين واقفاً على الباب، فقلت: يا أستاذ، إن أمي – ربي يحفظها – قلقةٌ جداً على نتيجتي.. ليتك تجعلني أبشّرها بالخير.. فقال المعلم: في أي صف أنت؟ فقلت: في الصف الخامس.. فقال: أنا لا أدرّس هذه الفصول، ولكن حسب علمي ليس هناك إلا طالبٌ واحدٌ قد رسب في الصف الخامس، عندها فرحت وقلت في نفسي: مستحيل أن أكون أنا

.indd 31 20/02/2019 10:20:25

الطالب الراسب بين ٩٤ طالباً.. لذا فرحت وبشرت أمي التي كانت لا تتوقع مني إلا الرسوب، وكانت في المدينة المنورة، حينذاك، عادةٌ جميلة اسمها "كش حلاوة" وهي أن يشتري الطالب الناجح كميات من الحلوى المغلّفة ويرميها من سطوح داره ليرى أولاد الحارة – ذكوراً وإناثاً – أنه قد نجح، وفلسفتهم في تلك الحركة تقول: إنّ نجاحك لك، أما الحلوى فهي فائدتنا من نجاحك..!

وفعلاً، فعلت ذلك واشتريت، بل اشترت لي أمي – رحمها الله – الحلوى، ورميتها من سطوح منزلنا الكائن في حارة الأحامدة، وفرح الأولاد واستبشر الأحباب بنجاحي ولم يبقَ إلا معرفة تقديري في هذا النجاح..!

ذهبت صباح السبت إلى المدرسة، والأمل يحملني على جناحه، لأني أوّل مرة في هذه المدرسة "التعيسة" أنجح من غير رسوب.. ولكن يا للحسرة فقد بحثت عن لوحة النتائج، فوجدت الناجحين ولم أرَ اسمي من ضمنهم.. ويممت وجهي شطر الراسبين في الصف الخامس فلم أجد إلا اسماً واحداً مهيباً كبيراً طويلاً هو أحمد بن عبدالرحمن العرفج!.

وهكذا رسبت.. بعدها في حوالي عام ١٣٩٧هـ نُقل عمي العزيز حسين العرفج ليدرّس البنات مادة القرآن الكريم في منطقة باب المجيدي، بجوار الحرم، وكان من العسير السكن في هذه المنطقة لغلاء الإيجار، لذا سكنّا في حي المصانع، بجوار خالي إبراهيم العجلان الذي تربيت عنده، وهكذا يعود الطالب أحمد العرفج إلى صباه.

.indd 32 20/02/2019 10:20:25

انتقلنا إلى الحي الراقي، الذي تسكنه – في الغالب – الأسر النّجدية التي تعيش في بحبوحة من العيش، في ذلك الحي بدأت حياتي.. لقد تعرفت على الباطل والعاطل والصامل والخامل.. في تلك المرحلة تعرفت على أصدقاء أوفياء مثل أولاد العياد والمهنا والدهامي والنّزاوي والفريدي والبري والعمري وأبوطالب، وأولاد سعد بن عيد الأحمدي، وأبناء علي الفايز، أشقاء وزير الخدمة المدنية سابقاً الأستاذ محمد بن علي الفايز.

في تلك المرحلة كنت – وما زلت – بارّاً بوالدتي وأهلي، وكانت دراجتي الهوائية تحمل على ظهرها مقاضي الأسرة، وكنت رجلاً مبكراً وسابقاً لمرحلة الرجولة.

في تلك المرحلة كان لدي طموحٌ بأن أصبح تاجراً، لذا صنعت طاولةً من خشب وبدأت أبيع الشاي والقهوة للحجّاج الذين يسكنون في حيّنا.. وقد كانت تجارةً ناجحة مكسبة.. ولكن الطمع جعلني أتطور لأعمل مع ابن أختي الرجل الكريم محمد البديوي، وفعلاً عملت معه وكان سخيّاً بالراتب ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر – كما يقول الأعرابي – وهكذا عملت معه في موسم الحج ليعطيني آلاف الريالات التي لا أدري ماذا أصنع بها، وأنا الغلام الذي ما زلت في الصف السادس.

في تلك المرحلة عدت – والعود أحمد وليس العرفج – إلى مدرسة البراء بن مالك، التي انتقلت من قبالة بيت خالي إلى حي صغير اسمه "البُساطة" ولست أدري لماذا سمي بهذا الاسم، وإن كنت أرجّح أنه نسبةً إلى عائلة "البساطي" المغاربية التي تكثر في هذا الحي.

.indd 33 20/02/2019 10:20:25

في هذه المرحلة كنت فحلاً كبير الحجم وأمتاز بالفتوّة الظاهرة، لذا حين صار الحفل الختامي لمدرستنا على شرف مدير التعليم الأستاذ الأديب الأريب عبدالعزيز الربيع ـ رحمه الله ـ كانت هناك فقرة وهي أنشودة حول فلسطين السليبة، وكانت الأنشودة تؤدّى بجوار لوحة للمسجد الأقصى، وهي صورةٌ ثقيلة، وكانت من بروتوكول الأنشودة أن نسلّم صورة القدس إلى مدير التعليم، من هنا أمروني أن أحمل اللوحة بحكم عضلاتي وفحولتي، وفعلاً حملتها طيلة فقرة أداء الأنشودة ثم سلّمتها لمدير التعليم، وقد حيّاني وقال: بارك الله فيك يا ولدي، وجعلك فاتحاً للقدس..!

وللإنصاف فقد كان الأستاذ عبدالعزيز الربيع أديباً بحق وقد كتب أعمالاً أدبية كثيرة منها مقدمة ديوان "قدر ورجل" لمحمد حسن فقي، وغيرها، كما أنّ له سيرة بديعة معنونة بـ"ذكريات طفل وديع" طبعها نادي المدينة المنورة الأدبي، وله كتاب صغير اسمه "رعاية الشباب في الإسلام".

وقد قرأت كل منتوجاته الأدبيّة ووجدتها قيّمةً رائعةً تصف مرحلة عاشها المؤلف بكل صدق، وحين مات الأستاذ الربيع رثاه كل من معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر والدكتور محمد العيد الخطراوي وغيرهما خلقٌ كثير.

في هذه المرحلة درست في الصف السادس ولكني مع الأسف اشتغلت بالتجارة مع ابن أختي، ثم تطوّرت الأمور وفتحت صندقة لبيع الحلويات ولكن فشلت.. ثم بدأت تجارة الحمام وجاء أحد الأشقياء وسرقها عن بكرة ذَكَرِها وليس أبيها على اعتبار أنها "حمام" ليس لها أب محدد!

.indd 34 20/02/2019 10:20:25

بعدها عرفت أن من سرق الحمام – قد توفي – وسامحته فهو بحاجة إلى كل دعاء ورحمة! ولن أطيل في هذه الحكايات لكوني سأنشرها في كتاب مستقل اسمه "الصامل، من ذكريات رجل تجارة فاشل"..!

في تلك السنة صاحبت شلّةً مارقة فاسدة، وقد تأثّرت بهم، وقررت ترك الدراسة والاتجار بالحمام والدواجن، حينها قالت لي أمي – رحمها الله –: يا ولدي ستعمل كنّاساً في الشوارع إذا تركت الدراسة!.

فقلت لها: وش فيها إذا اشتغلت كنّاس، أهم شيء راتبي حلال!

استمر الحال – على ما هو عليه – وقد توسّعت مطامعي، وبدأت بسرقة "طياس السيارات" وبيعها في "الحراج" أو "سوق الخردوات"، وبدأت بالتطاول على أولاد الذوات في الحارة، فما كان منهم إلا أن طلبوا الشرطة وفعلاً جاءت لحارتنا تطلبني أنا وبعض رفاقي.. حينها كنت أشتغل مع ابن أختي، وكان الجيب عامراً بالمال، لذلك ركبت مع صاحب تاكسي وهربت إلى القصيم في صباح منير..

وللأمانة لم يكن صاحب التاكسي يعرف أين القصيم، فقلت له أنا أدلّك.. فقال: دعنا نأخذ معك بعض الركاب لنملأ السيارة، فقلت له: أنا أعطيك أجرة السيارة كاملةً.. فوافق.. وبدأنا المسير.. كان صاحب التاكسي لئيماً، ولكني كنت أكثر منه لئامة، لأنني صاحب خبرة في "الصياعة والضياع" – وكلما حاول الوقوف في الصحراء قلت له: لا تقف إلا في المحطات التي أعرفها، وهكذا حتى وصلنا إلى مدينة بريدة عاصمة القصيم!

.indd 35 20/02/2019 10:20:25

وصلت إلى هناك، وبريدة في ذلك العهد كانت متقاربةً ملمومة، نزلت من التاكسي وهبطت في الموقف، وليس بيني وبين بيت عمي العزيز وشقيق أبي الوحيد محمد العرفج ـ رحمه الله ـ إلا دقائق معدودةً من المشي، مشيتها، وجلست بجوار المنزل حتى جاء ابن عمي عبدالله الذي أعدّه صاحبي.. وناديته وفاتحته بالأمر وأخبرته أنني هربت من أهلي في المدينة، فأخذني واشترى لي ما أحتاج من ملابس، وذهبنا في الليل إلى عين ماء حارّة، تسمى "عين عُطيشان"، تابعةً لأسرة إحدى زوجات الملك عبدالله.

جلست في بريدة عند أختي "أم خالد" وكانت نعم المضيفة، ولكن ما زال أهلي يعيشون حالة قلق في المدينة المنيرة، لأنهم لا يعلمون أين أنا، وقتها اتصل ابن عمي عبدالله بأهلي وطمأنهم على صحتي وأخبرهم بأنني لا زلت على قيد الحياة.

في ذلك الوقت دبّروا أمراً بالليل، وفعلاً اتفق ابن عمي مع أخي الوفي المخلص وشقيقي الوحيد يحيى، بأن يتقابلا في منتصف الطريق بين القصيم والمدينة ويسلّما لبعضهما البضاعة التي هي طردٌ بشري اسمه أحمد العرفج.

في هذا الوقت كان ابن عمي ذكياً، وأخبرني أننا سوف نذهب إلى المدينة المنيرة فقط لإحضار ملابسي وملفّي الدراسي حتى أتمكن من الدراسة في بريدة بدلاً عن المدينة التي صرتُ أخشى الناس فيها.

فعلاً تمّ الأمر، وسافرنا إلى المدينة وفي منتصف الطريق توقّفنا في منطقة اسمها "عقلة الصقور"، وعندما نزلت من السيارة رأيت أمامي أخي

.indd 36 20/02/2019 10:20:25

يحيى العرفج، وزوج أمي الكفيف الشريف الشفيف حسين العرفج، إنهما أتيا لمستقبلي، للحفاظ على حياتي، أتيا لكي أبقى إنساناً يليق بالحياة، إنهما جاءا رغم مشاغلهما لأنهما شعرا بالخطر الذي بدأ ينهش حياتي.. حقاً إنهما أتيا لأنهما يعرفان أنّ الدم لم ولن يمكن أن يصير ماءً.

رأيتهما، فعشتُ في المنطقة الوسطى بين "اللاحب واللاكره"، بحيث لم أكره ولم أحب.. فالقدر مقدّر، والخيرة ما اختاره الله الواحد القهار.

في تلك الليلة تعشينا، وقضينا ليلةً سعيدةً بالنسبة لهم، ولكنها مخيفةٌ بالنسبة لي، وحين انتصف الليل انصرفنا، وودّعني ابن عمي عبدالله – والدمع يتقاطر من عينيه بسبب خيانته لي – وقال: يا أحمد، هذا مستقبلك وسامحني على الغدر بك، فأنت شاب مصيرك لأهلك ويجب أن تعود لهم.

ركبت مع أخي وزوج أمي، اللذان أنقذاني من الضياع والجهل، وصلنا المدينة المنيرة في الفجر، فقال لي أخي: يا أحمد، أنت شقيقي الوحيد وليس لي غيرك، وليس لك غيري، وأنت بالخيار، إما أن تكمل دراستك بالمدينة أو تذهب معي إلى جدّة!

في تلك المرحلة – أي في حوالي عام ١٩٧٩م – كنت معيداً في الصف السادس، وأصبح عمري في حدود الخامسة عشرة عاماً، وكانت وزارة المعارف – كما تسمى حينذاك – لديها نظامٌ ينصّ على أنّ الطالب يجب أن يتخرّج من الصف السادس الابتدائية وعمره لا يتجاوز ١٥ سنة، وإلا يحوّل إلى القسم الليلي، لأنّ بقاءه في القسم الصباحي يشكل خطراً على الناشئة الجديدة التي تتراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والثانية عشرة!.

.indd 37 20/02/2019 10:20:25

وفعلاً بُحثتْ مسألة العمر، فوجدوا أنّ عمري يتجاوز ذاك القدر، وما زلت معيداً في الصف السادس.. فلم تجد المدرسة حلاً سوى تحويلي إلى القسم الليلي، وتمّ الأمر، ولكني وقعت في مشكلة أخرى وهي أن جميع من في الفصل الليلي، كانت أعمارهم بعمر أبي – يرحمه الله – وكان وجودي بينهم يشكل خطراً عليَّ وعلى جسدي ومستقبلي وعقلي!

درست في القسم الليلي ثلاثة أيام، ولكن لم يحلُ لي المقام في هذا القسم، فقد كانوا في حالة من الفوضى، فحين التفت إلى الوراء رأيت في آخر الفصل أعرابياً يضع "قطرة" في عين زميله الذي يعاني من ضعف النظر.. وشاهدتُ في المقعد الذي على يساري رجلاً غليظ الرجولة يتحسس ويعبث بشنبه "طوال الحصة".. وهكذا الفصل يعج بالرجولة والفحول، وأنا طفلٌ حائر بين بداية الرجولة ونهاية الطفولة!

نقلت الأمر الخطير إلى والدتي – رحمها الله – فاستاءت وغضبت ونقلت الأمر إلى ولي أمري زوجها العم وصاحب الفضل عليَّ حسين العرفج الذي ذهب إلى المدرسة، وتكلّم مع المدير ودار بينهما نقاشٌ طويل انتهى بخلاصة مفادها أنّ المدير لا يملك شيئاً، وكل الذي سيفعله أنه سيرفع الأمر إلى المسؤولين في الإدارة ليبتّوا في أمري.

لم أعد أتذكر التفاصيل كافة التي حصلت في ذلك الوقت، ولكن أتذكر أنّ لجنةً شكّلت للبت في أمري، ولا أدري أهي من نفس الإدارة أم جاءت من الوزارة عن طريق الانتداب.. واستمرّت اللجنة تناقش الأمر وباحثةً عن حل،

.indd 38 20/02/2019 10:20:25

وأنا سعيدٌ بهذا النقاش لأنني جالس مثل النساء في البيت، أرتع وألعب، أو كما يقولون: "أكل ومرعى وقلة صنعة"..!

تداولت اللجنة أمري، وأخيراً توصّلوا إلى حل يُرضي جميع الأطراف، ولعلّ أهم قرار أصدروه هو بقائي في القسم الصباحي.. ولكن ذلك بشروط قاسية وهي على النحو التالي:

أولاً: يبقى الطالب في القسم الصباحي.

ثانياً: يكتب على الطالب تعهدٌ خطيٌ بأن لا يحتك مع أي طالب، ويضع له كرسي في الركن القصي من الفصل!

ثالثاً: في حالة الفسحة، يخرج الطلاب للفناء، أما هذا الطالب "الفحل" فيبقى في الفصل ويُحضر له ما يحتاج من الأكل والشرب.

رابعاً: نظراً لقوّة الطالب الجسدية، وخبرته في المواد لأنه طالب معيد في نفس المستوى فيجب أن يقوم بكل الأعمال التي تتطلب جهداً بدنياً مثل "مسح السبورة" وتربيط الطلاب أثناء "الفلكة"، وإدارة الفصل أثناء غياب المدرس، ومسك الخريطة خلال شرح مدرس الجغرافيا. ولا زلتُ أتذكر أنني حفظت عشرات المدن والهضاب والجبال من كثرة مسكي لهذه الخريطة.. كيف لا؟ وأنا لم أنسَ بعد أن هضبة الشطوط تقع في الجزائر.

هذه شروط اللجنة.. ولكن بعض المدرسين لم يكتفوا بهذا، فقد كانوا يكلفونني بأعمال أخرى، خارج شروط اللجنة، على سبيل المثال، كنا ندرس أيام الشتاء، وكان كثيرٌ من الطلاب ـ بضغط من أمهاتهم ـ يكثرون من شرب الحليب.. ومن المعروف أنّ الحليب يساعد على إخراج الغازات بشكل

.indd 39 20/02/2019 10:20:25

مكثف.. وكان بعض المدرسين يتضايق من روائح هذه الغازات، ويريدون أن يعرفوا من هو الفاعل، فلم يكن أمامهم سوى تكليفي باللف على الطلاب الصغار وشمشمة روائحهم حتى أقبض على الفاعل وأقدّمه للعقاب.. يا لبؤس المهمة!

بعد هذه القرارات تعكّر مزاجي وضاقت نفسي وكرهت الدراسة في هذه المدرسة، لذا صرت مرحباً بأي مخرج، وراغباً في الانتقال إلى أي مكان..!

ولعلّ الأصدقاء الأفاضل من أمثال الدكتور الداعية علي الشبل والصديق هاني الظاهري الكاتب المعروف ورئيس تحرير وكالة أخبار المجتمع السعودي، يذكران بعض هذه الذكريات لأنهما من "أولاد حارتنا" وعاشا الطفولة في نفس الحي الذي عشتُ فيه.

في تلك الأيام.. كان أخي يحيى – ربي يوفقه – قد تخرّج من معهد المدينة العلمي وبدأ الدراسة في جامعة الملك عبدالعزيز – قسم العلاقات العامة – وقد وفّرت له الجامعة سكناً يقع في كيلو ٢ بجوار جريدة "عكاظ" حينذاك، فقال لي: يا أحمد، هل لديك رغبة بأن تذهب معي إلى جدة، فكرت قليلاً، وقد كان فريقي الاتحاد مهزوماً من الأهلي بنتيجة صفر/٤، كان ذلك عام ١٩٧٩م، فمشى في القلب حزنٌ ضعيف، بعدها قررت الرحيل والهجرة إلى جدة لتبدأ رحلةٌ جديدة من سيرة الألم وحكاية الكفاح.

في تلك المرحلة، ودعت أهلي وأمي وإخواني وأخواتي في حفلة بكاء طويلة يتخللها الصدق والمودة البيضاء، بعدها ركبت السيارة مع أخي الحبيب يحيى، ووصلنا إلى جدة في مساء من مساءات عام ١٩٧٩م، دخلنا

.indd 40 20/02/2019 10:20:25

جدة وأنا معيد في الصف السادس وكان لزاماً علينا أن نذهب للسلام على خالي العزيز وشقيق أمي الأكبر سليمان العجلان.

ذهبنا إليه واستقبلنا – رحمه الله – وأكرمنا، وأخبره أخي أنه أحضرني هنا لإنقاذ مستقبلي، حينها أصرّ خالي أبو عبدالعزيز على أخي بأن أسكن عنده، مؤكداً أنه يعدّني أحد أبنائه.

كان خالي الوفي سليمان لديه زوجتان، فأسكنني عند زوجته الأخيرة لأنّ لديها عدداً أقل من الأولاد وبذلك تكون المسؤولية أهون، سكنت وفرحت بالسكن، فخالي كريم، لذلك كنت آكل متى أريد، بعكس الأكل في منزل أهلي مقنن في أوقات الوجبات فقط! وللأمانة لم أعرف "الشيبس" إلا في تلك المرحلة، حين كان ابن خالي فهد – حفظه الله – يشتري لنا هذا المنتوج وأنا آكل منه مرة وألعق أصابعي مرةً أخرى.

في تلك المرحلة سكنت عند بيت خالي سليمان وتعلمت ماركة الثوب الكنبو وساندويتش البيض بالجبن، وغيرها من الأشياء الحديثة.

في تلك المرحلة، كانت أم أسامة بن لادن بجوار بيت خالي، وكنا نزورها، وكانت سيدةً سخية تعطينا.. نحن الصغار.. لكل فرد خمسة ريالات.. وكان الشاب أسامة يدخل ويخرج بمنتهى الأدب، ولم تكن الإشارات تشير إلى أنه سيصبح ذا شأن في يوم من الأيام.

سكنت مع خالي وبين أولاده في حي اسمه "النزلة الشرقية" وقد كانت أجمل أيام طفولتي هناك.. فقد حضرت أول مباراة للاتحاد في ملعب

.indd 41 20/02/2019 10:20:25

الرئاسة العامة لرعاية الشباب، وكانت ضدّ فريق النهضة الذي لا أدري أين ذهبت به الأيام الآن.

في تلك الأيام، بدأت أتعلم الأناقة وألبس الملابس البيضاء تحت الثياب، بعد أن كنت ألبس ملابس ملونة تحت الثوب الأبيض.

وفي تلك الأيام درست في مدرسة خالد بن الوليد الابتدائية وكان مديرها رجل "واصل" ولا يحضر للدوام كثيراً، وكان وكيله في المدرسة الأستاذ فلان الجفالي، هذا الجفالي شديد على الطلبة وكنا نخاف حتى حين يمر من جوار فصولنا.

في تلك الأيام كنت شاباً أحب الحياة ولا زلت أستمتع بها.. وأدرس وأذاكر والنتيجة أنني نجحت في الدور الأول بتقدير جيّد ولله الحمد.

نجحت وفرح الناس بنجاح "تنبل" يتخرج من الابتدائية وهو حائر بين خطوط الحياة ولم يستقر بعد.

درست ونجحت.. واستبشر الأحباب والأصحاب بنجاحي.. وبعدها جاءت الصيفية وذهبت لزيارة أهلي وأمي في المدينة المنيرة، وبذلك أكون قد طويت صفحة المرحلة الابتدائية بتقدير جيّد، لأبدأ الحياة في المدرسة المتوسطة!

في تلك الأيام أتذكر أنني نشرت أول قطعة صحفية في حياتي، حيث سرقت من كتاب العلوم معلومات، وسطرتها وكتبتها تحت عنوان: "أضف إلى معلوماتك" وأرسلتها لجريدة "عكاظ" ونشروها، وقد كانت مثل هذه

.indd 42 20/02/2019 10:20:25

الفقرة محببة لدى القراء والقارئات.. لأن الناس في ذلك الوقت يحبون المعلومات ويحرضون عليها!

.indd 43 20/02/2019 10:20:26

□□□□□□□ □□ □□□□□□□ □□□□ □□□□.indd 44 20/02/2019 10:20:26 □

الفصل الثاني

المعهد العلمي والكفاح السلمي!

ها نحن في عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م وأنا متخرج من الصف السادس، لن أنسى هذا التخرج لأنه جاء بعد معاناة وحزمة من سنوات الكفاح والجراح، كما أن أحداثاً كباراً حصلت في هذا العام، لعلّ أهمها حادثة احتلال الحرم المكي من قبل جهيمان بن سيف العتيبي، وهذا الحدث يعد فاصلاً في تاريخ السعودية وعلاقتها بالصحوة، ولن أتوسع في هذا الأمر حتى لا تتشعب الفكرة.

أكثر من ذلك، فقد انطلقت في هذه السنة الحرب العراقية الإيرانية التي ألقت بظلالها على كل أرجاء المنطقة.

في تلك السنة صرتُ بالغاً، وبدأتْ الشعرات التي تحت أنفي تتكاثر وتكبر، وكأنّ خشمي أصبح مهماً، بحيث أضع تحته خطاً من الشعر لا الشعور! لذا اعتذرتُ عن السكن عند خالي سليمان العجلان ـ رحمه الله ـ ذاك الرجل الكريم الذي ألحّ عليّ بالسكن عنده، ولكني لا أريد أن أثقل عليه، فقد منحني كرماً لا حدود له عندما كنت أسكن عنده، وأعيش في رحابة كرمه أثناء آخر سنة لي في الصف الابتدائي.

.indd 45 20/02/2019 10:20:26

لقد رغبت السكن في جُـدَّة، كما أن أسرتي – ربي يحميها – كانت خائفةً عليَّ من تفكيري بأن أعود إلى المدينة المنيرة لكي لا أعاود نشاطي الانحرافي مع أصدقائي القدامى.. خاصةً وأنّ أهلي ما زالوا يقطنون في نفس الحي الذي كان اسمه "المصانع" ثم طالته يد التغيير فأسموه "حي البيعة".

كان أخي الوفي والشقيق الوحيد يحيى رجلاً مكافحاً، بحيث يدرس في الصباح في جامعة الملك عبدالعزيز، وفي المساء لديه سيارة أجرة جميلة يسترزق من ورائها، ويجمع ما يكفي لحفظ ماء الوجه من سؤال الناس والاستلاف منهم.

حقاً، لقد كان أخي أبو عبدالرحمن يحيى العرفج مثالاً للشاب الذي يعرف المسؤولية ويحترم رابط الأخوة، لذلك فعل المستحيل حتى يضعني في مسار الحياة الصحيح، ولن أنسى له الفضل ما دمت حياً، ويكفي أنه كان شاباً مدخناً في بداية دراسته الجامعية، ولكن حين سكنت معه ترك التدخين حتى لا أتأثر أنا به وأصبح مدخناً.

إن السكن مع أخي يحيى قصةٌ لا تخلو من المعاناة والظرافة، فقد كان يسكن في سكن جامعة الملك عبدالعزيز في حي اسمه كيلو ٢، بجوار مبنى جريدة "عكاظ" السابق وكان يسكن معه رجلٌ فاضل هو الآن محلل أسهم شهير اسمه د. أسعد سلامة جوهر، وكان أخي من قلة ذات اليد بحيث لا يستطيع أن يستأجر شقةً له ولي.. وبنفس القدر من الصعوبة أن أسكن معه

.indd 46 20/02/2019 10:20:26

في سكن الجامعة وأنا غلام صغير وشكلي يوحي بأنني ما زلت طالباً في المرحلة المتوسطة.

وبعد جهد جهيد وتفكير مديد توصل أخي أبو عبدالرحمن إلى طريقة بحيث أسكن معه، وأخبر المشرف على السكن وهو رجل سوداني لطيف بأنني سأجلس معه فقط ليوم أو يومين.. وهكذا وبعد أن انتهى اليومان.. اشترى أخي للمشرف هديةً جيّدة وكما يقولون: "اعط اليد تستحي العين" فصار المشرف يتجاهلني حين الدخول والخروج بل أصبح يتحاشى النظر إليَّ حتى لا يشعر بألم الضمير.

كانت الغرفة صغيرة جداً، وليس فيها إلا سريران، وكان الدكتور – فيما بعد – أسعد سلامة ينام على سرير، وأخي ينام على السرير الآخر.. أما أنا فقد كنتُ أنام تحت سرير أخي العزيز.. وهكذا استمر الوضع حتى انتهيتُ من السنة المتوسطة الأولى.

لقد كان النوم صعباً، فالمساحة ضيقة والأكسجين قليل وحركات من ينام في أعلى السرير كثيرة، لذا ضبطتُ نفسي على إيقاعات جسده بحيث أتحرك حين يتحرك، وأنام على ظهري لأزيد المسافة بين سقف السرير وجسدي وإن لم أفعل ذلك فإنّ عظامي سوف تتألم أو تتهشّم وأدخل في دوامة العلاج والهجاج.

* * * *

.indd 47 20/02/2019 10:20:26

لنعد إلى أيام المدرسة، تخرجت من الابتدائية بتقدير "جيّد"، ثم زوّرت الشهادة وكتبت "جيّد جداً"، فقط على الشهادة الرسمية التي تعلّق على الجدار، وكان أمامي خياران إما المتوسطة التقليدية، أو المعهد العلمي، ونظراً لأنني يتيم ولديّ شيء من بقايا الكرامة العربية المزعومة، فقد اخترت المعهد العلمي نظراً لأن هذا الصرح التعليمي يصرف لنا راتباً شهرياً مقداره (٦٢٠) ريالاً في كل شهر، كما أنني حرصت على المعهد لأن نبوغي العلمي بدأ يظهر وبدأت أميل للثقافة قليلاً، وأحب أن أوسع حديقة معارفي وأصغّر دائرة جهلي، والمعهد العلمي ميدان "كامل الدسم" من حيث المادة التراثية والأدبية والشرعية.

والمعهد العلمي ليس له من اسمه نصيب، لأن من يسمع اسمه يظنه معهداً يحتوي على معامل ومفاعلات ذرية ونووية، ولكن الحقيقة ليس فيه من هذه العلوم شيء، وكل ما هنالك هو كتاب في الحديث اسمه "الأربعون النووية" نسبة للإمام النووي رحمه الله.

في عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م بدأت الدراسة في المعهد وأنا لم أسجل بعد، ومرّ الأسبوع الأول ثم الثاني، بعدها جئت من المدينة ولم يقبلوني حتى توسط لي أحد زملاء أخي وهو مدرس في المعهد.. إنه الرجل الفاضل الأستاذ سعيد الغامدي!

كان معهد جدة العلمي بجوار البحر، وما زال مبناه قلعةً مهجورة، ومن الغريب أنها حتى الآن لم تذهب منحة إلى أحد النافذين، وحتى لا أسلّط الفاسدين على مكانه أقول: إنه يقع على يسار الذاهب شمالاً حين يكون

.indd 48 20/02/2019 10:20:26

فندق البحر الأحمر الشهير على يمينه، في تلك المنطقة بدأت تتفتح مداركي، بدأت أعرف المتون والحواشي وزاد المستقنع وبلوغ المرام وشرح ابن عقيل وحفظ القرآن ونشاط الأسر اللاصفي، وسيد قطب وابن القيم وابن تيمية.. إلخ.

ولا زلت أشعر بشيء من الخجل حين دخلت المعهد.. ففي أول أسبوع من دراستي، بدأنا في كتاب الفقه وكان أول الفصول فيه "كتاب الطهارة" يتناول الحيض والاستحاضة والفرق بينهما، وتعريف كل مصطلح لغة وشرعاً، فمثلاً درسنا أن الحيض لغة: السيلان، يقال حاض الوادي إذا سال.. وشرعاً: خروج دم من فرج المرأة في وقت مخصوص على شكل مخصوص.

وهكذا كل مصطلح فقهي، يجب أن يُحفظ تعريفه لغة وشرعاً أو عرفاً.. وفي المعهد كانت المواد اللا دينية لا تجد الاهتمام الكافي.. مثلاً مدرس الحديث كان يدرسنا جغرافيا، وهذا اختلاط بين المادتين والتخصصين، ومع هذا لم يجد هذا الاختلاط أي معارضة..!

درسنا في ذلك المبنى القديم جداً على ما أذكر حتى منتصف العام ثم انتقلنا إلى المبنى القديم.. كنت أعاني كثيراً من المواصلات، فأنا أسكن في كيلو ٢، والمعهد بجوار البحر، لذا كان أخي الوفي يحيى يوصلني في الصباح، أما في الظهيرة فقد تعرفت على شاب نبيل شهم اسمه علي الهويرتي وكان يحملني بسيارته كل ظهيرة حتى انتقلنا إلى المبنى الجديد.

.indd 49 20/02/2019 10:20:26

ولا زلت أتذكر كيف أنني عانيت كثيراً قبل التعرف على صديقي علي، وكيف أن معظم مكافأة المعهد كانت تذهب أجرة للمواصلات التي تحملني إلى سكني، وهي مسافةٌ طويلة تقع بين البحر وبين كيلو ٢ بجوار عمائر التأمينات!

في تلك الأيام بدأت أحب العلم والمعرفة، وكان أخي وزملاؤه يتناوبون عليّ في شرح ما التبس وتوضيح ما غمض، وخاصة الأساتذة د. أسعد جوهر ويوسف بن علي الفايز ومسلم اليحيوي ود. عبدالرحمن رجاء الله الأحمدي وغيرهم، لذا نجحت في الفصل الأول في كل المواد ماعدا مادة الإملاء، من هنا كان يجب عليّ أن أتقوَّى في هذه المادة قبل اختبارات آخر العام، وبدأ أخي الوفي يحيى يعطيني مقالات أكتبها عدة مرات حتى أحفظ رسم الكلمات وكيفية كتابتها بشكل صحيح.. وهكذا نجحت في نهاية العام بتقدير جيّد في الصف الأول متوسط لأنتقل إلى الصف الثاني.

في تلك المرحلة بدأت التعرف على الصحافة، وقد وجدت في السكن عدداً من مجلة "اليمامة" ولفت نظري في ذلك العدد قضية الأسبوع، حيث كانت حول "الصراع بين النقل الجماعي وخط البلدة"، وأتذكر أنني قرأت القضية كاملةً وتحمّستُ لأصحاب "خط البلدة"، لعلمي أنهم أصدق من شركة النقل الجماعي في النقل والمواصلات داخل المدن.. وبالفعل انسحب النقل الجماعي من المشهد، وبقي خط البلدة قائماً كأفضل شركة في النقل داخل المدن!

.indd 50 20/02/2019 10:20:26

في تلك المرحلة تعرفت على قواعد اللغة العربية بفضل الله ثم بفضل أستاذ سوري بارع اسمه محمد نافع المصطفى، علّمني القواعد على أصولها، فأخذت في نفسي مقلباً كبيراً، وصرت أتفلسف في النحو في كل مكان.. ولا زلت أذكر أنني حين كنت في الصف الثاني المتوسط ركبت الطائرة متجهاً من جدة – بضم الجيم – إلى المدينة المنيرة، وبالصدفة كان بجواري معالي الأستاذ الصديق – فيما بعد – إياد مدني، الذي عرّفني بنفسه آنذاك بأنه مدير عام مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر، حينها تحمست عليه مستعرضاً عضلاتي اللغوية قائلاً: يجب على جريدتكم أن تراعي قواعد اللغة العربية، ويجب ويجب.. وهكذا.. كان إياد ينظر إليَّ بشفقة، وأدرك أنني "أكل مقلب" في نفسي، لذا أخذ يهز رأسه مكتفياً بقوله: صحيح صحيح.. وكأنه في ذلك يريد أن ألتزم الصمت ليكمل هو قراءة الجريدة التي في يده..!

في تلك السنة انتقل المعهد إلى مبناه الجديد، وما زال هناك حتى كتابة هذا الكتاب حيث يقع في كيلو ٣ الواقع على طريق مكة القديم، وهنا صرت لا أجد صعوبة في مشي المسافة فهي ليست أكثر من ٢ كيلو متر وأنا من عشاق المشي.

في المعهد تعرفت على شباب هم النجاح بعينه من أمثال الشاعر دخيل الله السلمي الذي يعمل الآن بجريدة "المدينة" إضافة إلى عمله الأصلي، وإبراهيم السميري وصالح عواض الحارثي ومداد الجدعاني وغيرهم ممن لا تصل إليهم الذاكرة في هذه اللحظة.

.indd 51 20/02/2019 10:20:26

كان طلاب المعهد في الغالب من أبناء القبائل من أمثال السلمية وأبناء غامد وزهران وبعض أبناء الجداعين، ولفيف من الظواهرة وأمشاج من الأسر النجدية المقيمة في الحجاز منذ زمن طويل مثل العجلان والقفاص والجربوع والشبرمي، أما فيما يخص البقية القليلة فهم كأصابع اليدين من أمثال أبناء الحضارم، وأطياف من أبناء الحاضرة.

كان المعهد وما زال مؤسسةً من مؤسسات جامعة الإمام محمد بن سعود ويوجد في المملكة أكثر من ستين معهداً، كما أن هناك معهداً في رأس الخيمة، وآخر في طوكيو، وثالث في أمريكا، ورابع في مدينة شنقيط بجمهورية موريتانيا، وقد أغلق بعد أحداث سبتمبر – حسبما قرأت في إحدى الصحف – لأنه يدعو إلى التطرف!

... الدراسة في المعهد تستغرق ست سنوات، تبدأ من الصف الأول متوسط حتى الصف الثالث ثانوي، وبعدها يكون الطالب مهيئاً إلى حد كبير للالتحاق بجامعة الإمام ليواصل دراسته الجامعية، أما على الصعيد الشخصي فليس في هذه المرحلة ما يذكر إلا قصة نجاحي السريع، الذي تم في أول سنة، إضافة إلى معاناتي في حمل الكتب وثقلها من جهة، وغرابتها وصعوبة لغتها من جهة أخرى.

كما كنا في المعهد ندرس مادتي "الجبر والحساب" وكانتا من الصعوبة بمكان.. لذا لا مفر من الاستعانة بصديق، وكان ذلك الصديق زميل أخي والمشارك لنا في الغرفة الأستاذ أسعد سلامة جوهر – وفقه الله – الذي

.indd 52 20/02/2019 10:20:26

صار فيما بعد أستاذ الاقتصاد في جامعة الملك عبدالعزيز ومحلل في سوق الأسهم السعودية!

كما أن مادة اللغة الإنجليزية لم تكن مفيدةً لنا كثيراً، لأن المعهد وتوجهه الديني لا يحبذ الاهتمام بـ"لغة الكفار"، هذا على مستوى المعهد، أما على مستوى الفصل، فقد كان هناك طالب معنا في نفس الفصل إذا بدأت حصة الإنجليزية دخل في نوبة إغماء، فتضيع الحصة في إنقاذه وتسكين الصرع الذي يصيبه.. وهكذا مرّ العام ما بين استهتار وعلاج.. وخرجنا من تلك السنة دون أي تحصيل من اللغة الإنجليزية يُذكر..!

في هذه السنة كدتُ أفقد مستقبلي حين ارتكبت حركةً حمقاء، تمثلت بالعبث بسيارة أخي، حيث أعطاني المفتاح لأحضر له شيئاً، وكنا نسكن بالكيلو ٢ بجوار مطابع جريدة "عكاظ"، في تلك الحارة ذات الشوارع الضيقة، ذهبت إلى السيارة وكان أخي يراقبني من الشرفة "البلكونة" حدثتني نفسي بأن أحرك السيارة في نفس الشارع نحو الخلف ثم أعيدها نحو الأمام، وكنت حينها بل وما زلتُ مغرماً بالمطرب الكبير فوزي محسون ـ رحمه الله ـ، وفعلاً شغّلت السيارة وأغلقت الزجاج ووضعت صوت فوزي بشكل مرتفع وبدأت أرجع السيارة إلى الخلف، في هذه الأثناء خرجت طفلة من بيت بجوار السيارة وأخذت تحبو وتزحف واقتربت من السيارة ولم يكن بينها وبين الدهس إلا أقل من نصف متر.. في هذه الأثناء كان أخي الوفي يحيى يصرخ بأعلى صوته قائلاً: توقف.. توقف يا أحمد، وأنا لا أسمع شيئاً من قوة الموسيقا، حينها أحسن أخي التصرف ورمى حديدة على السيارة،

.indd 53 20/02/2019 10:20:26

عندها توقفت من جرّاء قوة الضربة، ونزلت من السيارة لأرى ما الخطب؟ وإذا بأخي يصرخ قائلاً: يا حيوان! بنت الناس تحت السيارة وأنت كنت ستدهسها.

رجعت إلى الغرفة وعاقبني أخي ثم صلّيت لله صلاة الشكر بأن الدهس لم يحصل، ولو حصل – لا سمح الله – لكان أحمد شخصاً آخر غير الذي ترونه الآن.

الحمد لله، لم يطل مقامنا في ذلك السكن الذي يقع في كيلو ٢، بل استأجرت جامعة الملك عبدالعزيز بناية ضخمة في كيلو ٧، ونقلت كل طلاب تلك الوحدة هناك، وكان طلاب الجامعة يعيشون في وحدات سكنية، ووحدة أخي التي أسكن فيها معه كانت تسمى "وحدة الفارابي"!

كان السكن في كيلو ٧ بعيداً عن المعهد، لذا كنت أستخدم النقل الجماعي في الذهاب والإياب، ونظراً لفقري وقلة مالي، فقد كنت أحتال على "النقل الجماعي" في الحساب.

كان راكب النقل في ذلك الوقت يركب الحافلة، وفي مدخلها يوجد صندوق مغلق بإحكام، وكل راكب يلف الريال، ويضعه في الصندوق.. لذا أقوم أنا بقطع الريال إلى جزأين، وألف الجزء الأول للذهاب، وألف الجزء الآخر للإياب.

عندما سكنا في السكن الجامعي في كيلو ٧ اقتربت كثيراً من منزل زميلي في الدراسة والفكر والتوجه الصديق دخيل الله السلمي، فكنت أذهب إلى المسجد الذي بجوارهم نذاكر معًا ونراجع المواد، وإذا انتهينا

.indd 54 20/02/2019 10:20:26

من الدراسة "تسلتحت" عليه ليعزمني على العشاء في منزله، وكان هو وأبوه – رحمه الله – وكل أسرته يفرحون بزيارتي لهم، مثلما أفرح أنا بهم.. حقاً، لقد دخلت منزلهم عشرات المرات، وكانوا – شكر الله فضلهم – مثالاً للكرم البدوي الأصيل.

* * * *

نحن الآن في عام ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، وهذه السنة علامةٌ فارقة في مسيرتي الدراسية، وفي هذا العام تحققت معجزة حيث كان ترتيبي الثاني في معهد جدة العلمي، أما الأول فهو الصديق الشاعر دخيل الله السلمي، في هذه السنة بدأت علاقتي في الصحافة، حيث كنت أسرق من مقرراتنا الدراسية وأغيّر فيها بشكل بسيط ثم أنشرها في صحيفة "المدينة"، ولا زلتُ أذكر أول مقال نشرته عام ١٤٠٢هـ بعنوان: "صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم"، وقد سرقتها من كتاب "بلوغ المرام".

ولا زلت أتذكر أن مدير المعهد الأستاذ راجح الجدعاني أشاد بمقالي، وقال أمام زملائي: لقد قرأت أمس مقال العرفج في جريدة "المدينة"، وليت كل الطلاب يقتدون بالعرفج ويحاولون النشر في الصحف!

في تلك السنة كاد حلمي أن يتحقق، وهو أن أرى اسمي في الجريدة من ضمن الأوائل، وفعلاً أرسلت إدارة المعهد أسماء الطلبة الأوائل لجريدة "المدينة" وكانت الأسماء ستنشر بعد يومين من ظهور النتائج، ولكن في ذلكم الوقت توفي الملك خالد، رحمه الله، فاجتاحت التعازي صفحات

.indd 55 20/02/2019 10:20:26

الجريدة وعصفت بها، فرأت الجريدة تأجيل النشر.. وطال التأجيل عدة أيام، بعدها صار من غير اللائق نشر أسماء الأوائل الذين نجحوا قبل أسبوعين.

في تلك السنة ذهبت في الصيفية إلى المدينة المنيرة لزيارة أهلي وأمي واستغليت بقية الإجازة بالعمل موظفاً، أراقب الحجاج في الحرم، ولن أطيل في تفاصيل العمل هنا، لأنني سأشرحه بالتفصيل في كتاب يتناول حياتي الوظيفية، بعنوان: "المُلطّف من سيرة أحمد العرفج الموظف".

في هذه السنة صرت على مفترق طرق، لأن أهلي سينتقلون من المدينة المنيرة إلى مدينة الرس، حيث وافق أهل الرس أن يدرس بناتهم كفيف، حينها انتقل عمي الغالي وولي أمري وزوج أمي الحبيب حسين العرفج إلى الرس، وعرض عليّ الأهل الانتقال معهم إلى الرس!

ولأنني كنت في تلك الصيفية أعيش في بحبوحة من العيش، حيث لدي راتب المعهد العلمي، وراتب العمل في الصيفية، اشتريت دباباً – أو دراجة نارية كما يقول الفصحويون – كان الدباب أحمر اللون يسر الناظرين، من ماركة "هوندا".

فكرتُ كثيراً في العرض المقدم لي من أهلي، فكرت كثيراً، وأخيراً قررت الانتقال معهم، لأن أخي الغالي يحيى تخرّج من الجامعة وعُيّن بقسم رقابة المطبوعات بفرع وزارة الإعلام بجدة، وأنا صرت مُحصّناً من كل ضياع بعد أن تذوقت طعم النجاح وجماليات التفوق وحلاوة العلم وعسيلة المعرفة.

نعم، رحلتُ مع أهلي إلى الرس واستأجرنا سيارةً كبيرة لحمل العفش ووضعنا كل ما نملك من حطام الحياة الدنيا في هذه السيارة، ونظراً لتعلقي

.indd 56 20/02/2019 10:20:26

الغرامي بالدباب فقد وضعته في أعلى العفش، ومن فتنتي به ركبت عليه طوال الطريق رغم أنه مغروس بين كتل العفش وأنا أعتليه ممسكاً بمقوده، وكأني أقوده في الهواء!

بعد يوم من السفر الطويل وصلنا إلى الرس، وهي مدينةٌ صغيرة وشهرتها جاءت من تطابق اسمها مع قصة أصحاب الرس وثمود، الوارد في القرآن الكريم.

وهي أرضٌ مسطحة كثيرة الآبار.. وماؤها حلو عذب.. حتى قالوا في الأمثال: "أحلى من ماء الرس".

في الرس، كنا نسكن في فيلا فخمة، نظراً لأن مفهوم الشقق ليس مشهوراً في تلك المدينة، وأغلب بيوت الرس هي من نوع المساكن الكبيرة!

في الرس تعرفت على نفسي، تعرفت على التفوق وعلى الطموح، على الكتابة، على التعبير عن الذات، في تلك المرحلة قرأت كتابيْ "العبرات والنظرات" للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي.. وقد كنت أقرأ والمناديل معي.. لأنني أبكي مع كل قصة وأتصور الدنيا كلها فقط فيما بيني وبين هذين الكتابين.

بدأت الدراسة، وكنت أذهب إلى المعهد على ظهر دبابي الأحمر الغريب، وكان الكل في الرس يتحدث عن دبابي، ويسمونني "الحجازي"، أما دبابي فيسمونه "الخرينق"، وسألت عن ذلك فقالوا إن من يبيع هذا النوع من الدبابات رجل اسمه فهد الخرينق.

.indd 57 20/02/2019 10:20:26

لقد سجلت في المعهد بعد أسبوعين من مرور الدراسة، والفصول قد وزعت، لذا وضعوني آخر طالب، ولا زلتُ أتذكر أن رقمي كان ٩٣، في كشوفات السنة الثالثة المتوسطة.

في تلك السنة كنت متفوقاً، وقد حصدت أعلى الدرجات في النحو والجغرافيا والفقه والإملاء، وحين ظهرت نتائج الكفاءة المتوسطة كان ترتيبي الخامس، نظراً لرداءتي بمادة الإنجليزي والحساب.

في هذه السنة – أعني ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م – نجحت بتفوق، وبدأت أكتب في صحيفة "عكاظ" عن بعض الصحابة، ومقاطع عن الحياة، وعلاقتي بأغنيات المطرب عبادي الجوهر... إلخ.

وفي هذه المرحلة رشّحني المعهد ضمن خمسة طلاب للمشاركة في مخيم كشفي كبير يضم كل قطاعات جامعة الإمام وأقيم المعسكر بين مدينتي عنيزة وبريدة لمدة أسبوع.

لقد كان أسبوعاً حافلاً بالنشاط والمحاضرات والمسابقات، وفي هذا المعسكر تشربنا "منهج وفكر الإخوان" وأصبحنا "إخواناً" من غير أن نشعر..!

كان المعسكر من كل أنحاء المملكة، ويشبه "الدورة العسكرية"، حيث لبس البدلة الكشفية دائماً، والنوم في الخيام، وإحياء الخفارات، استعداداً للجهاد.. وهكذا.

لقد كان المخيم علامةً فارقة في حياتي، فقد كدتُ أن أنخرط في تيار الصحوة لولا لطف الله ثم اعتزازي بنفسي التي تأبى أن تنقاد لأي أحد

58 .indd 20/02/2019 10:20:26

"كائناً من كان"، والحمد لله مرّت آثار المخيم سريعاً ولم يبقَ في الذاكرة إلا صديقين عزيزين خرجت بهما من المخيم، هما الدكتور صالح السحيباني أستاذ الإعلام بجامعة الإمام، والصديق عبدالله العريفج الذي لا أدري ماذا فعل الله به!

في هذه السنة أسست فريقاً لكرة القدم في الرس، وبدأت أقيم مباريات مع بعض الجاليات الموجودة في الرس مثل الجالية التركية والجالية السودانية والجالية المصرية رغبةً في تطبيع العلاقات بين أهل الرس وبين الوافدين العاملين بها، كما أنني في هذه السنة سجلت في نادي الحزم وما زلت مسجلاً هناك في فرع "سباق الدراجات"، ولن أطيل في هذا السياق لأنني سأجمع ذكرياتي الرياضية في كتاب مستقل اسمه: "الكلام الفاضي من سيرة أحمد العرفج الرياضي"!

في هذه المرحلة ـ يا للحسرة ـ سُرق دبابي، فبكيت بكاءً مرّاً عليه، وأقمت له عزاءً، حيث بدأ الأصدقاء يتوافدون على منزلنا لتعزيتي في سرقة الدباب، جاؤوا يعزون وكلهم يبكي، وأنا ما زلت أردد "كلكم يبكي فمن سرق الدباب"، كما هي عبارة أحد السلف.

في تلك الأيام، تعلّمت قيادة السيارة، بعد سرقة الدباب، ثم اشتريت سيارة من ماركة "مازدا"، وبدأت أخدم أسرتي وأسعى لقضاء حوائجهم وكان شراء السيارة نعم القرار..!

* * * *

59 .indd 20/02/2019 10:20:26

ها نحن في عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، نرتب حقائبنا لبدء عام دراسي جديد، وأنا أتطاول على أقاربي، فقد حصلت على الكفاءة التي بموجبها من الممكن أن أحصل على كثير من الوظائف من مدنيّة وعسكريّة.. بدأنا العام وكنت أسير في ركب المجتهدين، غير أنّ أمرين حصلا في هذه السنة فيما يتعلّق بالدراسة أولاهما، أن مدرس مادة القرآن الكريم لم يكن ودوداً معي على الإطلاق، وكان يتقصد إهانتي وتخطئتي بالقراءة، وللأمانة فقد كان عالماً بالقراءات الصحيح منها والشاذ، ولكنه "صلف الشخصية" ولا يرتاح لرؤية وجهي الذي فيه بداية شعيرات تكسو الخد، وشارب كأنه خط تحت كلمة يراد إعرابها، وهذه الكلمة هي الأنف.

هذا المدرس جعلني أعاني وأتخوف من تلاوة القرآن، بل صار لساني منعقداً حين القراءة، وبدأ طيف الرسوب والإخفاق يخيّم على طموحي وأحلامي، ولكني في النهاية أحضرت القرآن كاملاً بصوت كبار المقرئين من أمثال عبدالباسط عبدالصمد والمنشاوي، وبدأت أردد وراءهما حتى استقام لساني وتجاوزت الامتحان بتفوق يتراوح بين الجيّد والجيّد جداً.

أما الأمر الثاني، فقد حصلتُ في الفصل الأول من اختبارات مادة الإنجليزي على ١٢ درجة فقط من خمسين درجة، كان نصيب الاختبار منها ٤ درجات، أما الثمان الباقية فهي جاءت من درجات أعمال السنة، كان مدرس الإنجليزي رجلاً مملاً، ولكنه مخلص وصادق، وقال لي: يا أحمد، إذا أردت النجاح فيجب أن تبذل جهداً خرافياً حتى تنجح، صحيح أن النجاح ليس مستحيلاً، ولكنه صعب جداً على أمثالك!

.indd 60 20/02/2019 10:20:26

اعتبرت كلماته هذه إشارة تحدٍ، وجلستُ مع نفسي ووضعت خطة عمل، وأحضرت مدرساً خاصاً من الجنسية المصرية كان مرافقاً لزوجته في الرس وليس لديه أي عمل، وهكذا أخذ يدرسني ساعات طويلة ويشرح لي.. ولكني لم أفهم شيئاً.

كان المطلوب للنجاح فقط ٣٨ درجة، وقال لي المدرس سأعطيك عشر درجات من درجات أعمال السنة التي هي في الأصل ١٥ درجة، والباقي من الدرجات يجب أن تحصل عليها من إجابتك عن الأسئلة في الامتحان التي تضم ٣٥ درجة ولا مفر من أن أتحصل منها على ٢٨ درجة.

كانت أعظم الدرجات في ورقة الأسئلة منصبة على السؤال الأول، وهو سؤال تقليدي يطلب فيه كتابة قطعة أدبية إنجليزية في موضوعين يتكرران كل عام وهما إما: وصف لمدينة الرياض، أو كتابة تعبير عن تطور الصناعة في المملكة. وكان من المستحيل أن أحفظ الاثنين معاً، لهذا خاطرتُ وحفظتُ القطعة التي تصف مدينة الرياض وكتبتها إنجليزية بحروف عربية حتى أحفظها وأحاول أن أحفظ ما أستطيع من كتابتها بشكل صحيح.. وهكذا دخلت الاختبار، ويا للفرحة فقد جاءت كما توقعت، وانطلقت أكتب وأجيب السؤال بعد السؤال، وحين وصلت للسؤال الأخير صعُبتْ عليَّ الإجابة، لذا استرقت بنظري ورقة زميلي الذي أمامي.. واسمه أحمد الغفيلي، ربي يوفقه أينما حل، ونقشت إجابته، وكان من عادته أن يكتب اسمه في نهاية إجابته، فما كان مني إلا أن كتبت اسمه نظراً لجهلي بالحروف.. انتهينا

.indd 61 20/02/2019 10:20:26

من الامتحانات وظهرت النتائج وحالفني الحظ أن أسكن في منطقة النجاح ويصبح ترتيبي العاشر على مستوى المعهد!

بعد الامتحان قابلت الأستاذ بسام مدرس مادة الإنجليزي وأبدى إعجابه بجهدي وكفاحي، ولم ينسَ أن يشير إلى أن جواب السؤال الأخير كان مسروقاً، والتقط أذني وقرص عليها بأصابعه وقال: إذا غششت في المستقبل كن ذكيا ولا تكتب اسم زميلك الذي سرقت منه.. ثم ذهب وهو يقول: لقد حصلت على ٢٦ درجة ولكن لجنة الرحمة في الامتحانات "دفتك" بدرجتين لأنك طالب جاد.. وتستحق أن تنجح.

في تلك السنة تعلمنا الفرائض ودرسناها.. وبدأنا ندرس شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك.. تعلمنا البلاغة وضروب الخبر، تعلمنا مفهوم الصحف الحائطية وبدأنا نصدرها ونشارك في إعدادها، لقد بدأنا ندرس توحيد الصفات لا الأسماء وكان كتاب "العقيدة الواسطية"، لابن تيمية هو المقرر علينا.

في تلك المرحلة كانت المدرسة القطبية – نسبة للعالم سيد قطب – هي السائدة والمرغوبة، لذا انخرطنا في الجمعيات التي تسمى "الأُسر" وقد كنت في "أسرة عمرو بن العاص"، كنا نخرج في عصرية كل يوم أربعاء في براري مدينة الرس، نتدارس عزة المؤمن، واستحضار شخصية سيد قطب، وإبائه وأنفته.. كنا نميل إلى الفكر الجهادي ولكن لا نملك التصريح به، وكان الجهاد الأفغاني نغمة تطرب آذان المستمعين.

.indd 62 20/02/2019 10:20:26

كان المعهد في تلك السنوات حقلاً جميلاً لزراعة الفكر الجهادي، وبث نواة المجاهدين وفق المفهوم القطبي القائل بهشاشة الحضارة الغربية واحتقارها، لتأتي الفرصة لبناء قاعدة إسلامية سليمة قائمة على عزة المسلم واستلهام التراث الإسلامي الخالد.. وهكذا نبني "القاعدة"، لتكون قاعدة واضحة "كمعالم في الطريق"، التي ستقضي على جاهلية القرن العشرين وهبل العصر، ومن هذا المنحى جاء اسم وفكر "قاعدة بن لادن".

وفي نهاية عام ١٤٠٤هـ طويت صفحة الرس التي أحببتها من كل قلبي، وما زلت أتذكر فيها أصدقاء هم الأحباب رغم طول الغياب، أصدقاء من أمثال عايد الشبعان، وحسين الخربوش، ومحمد طلال الوقيت، وعبدالسلام البزيع، وسليمان الخليفة، ومحمد القزلان، وخالد المزروع، وصالح العميري، وعلي الجدعي، وبطاح الدعيجي، وسليمان المعثم، ومحمد الضويان – رحمه الله –، ومحمد العساف، ومحمد المجيدل، وأحمد وخالد الغفيلي، وإبراهيم وأحمد وفهد الهويمل، وغيرهم ممن يستعصون على اللحظة.. لقد خرجت من مدينة الرس وأنا أردد البيت الشعري القائل:

هي الرس، ما لدي أحلى من الرسِ

بها كل ما أبغي.. وما تشتهي نفسي!

* * * *

ها نحن في بداية عام ١٤٠٥هـ، وقد قررت الأسرة الانتقال إلى مدينة عنيزة، نظراً لأن أهلها صاروا لا يمانعون من أن يدرس فتياتهم كفيف..

.indd 63 20/02/2019 10:20:26

انتقلنا إلى مدينة عنيزة، وهي مدينة شامخة في العلم، عُرف أهلها بحب المعرفة والطموح والهجرة، والاعتزاز بمدينتهم، ومن حسن الحظ أن أسرتي الكريمة "العرفج" مشطورة بين بريدة وعنيزة، لذلك كان الناس يألفوننا ونألفهم بسرعة، ولعل أشهر رجالات التعليم في القصيم، بل في المملكة هو العم عبدالرحمن بن عبدالله العرفج رحمه الله، فقد فتح أول مدرسة في الرس، وأول مدرسة في حائل. وقد سافر على جمل لكلا المدينتين ليؤسس فيهما المدرستين كما أنه أحد أساتذة معالي الدكتور وزير الدولة عبدالعزيز الخويطر حين كان طالباً في المدرسة الابتدائية، كما درّس معالي الدكتور الشاعر إبراهيم العواجي وكيل وزارة الداخلية السابق، وغير ذلك من الأفعال الرائدة التي قام بها هذا الرائد.

وصلنا إلى مدينة عنيزة وسكنّا خلف المعهد العلمي الذي لا يزال في المكان نفسه نظراً لقربه من المدارس المهمة لكل أفراد الأسرة، وفي عنيزة وجدت نفسي، وجدت أحمد المثقف، أحمد الممثل، أحمد المذيع، أحمد مقدم البرامج.. إلخ.

لقد أعطاني هذا المعهد الجميل أجمل الأشياء التي ترفع منسوب الثقة بالنفس، لقد كان أساتذة المعهد بحق علماءً وأدباءً يحبون من هاجر إليهم، ومن يريد طلب العلم على يديهم.

جئت إلى عنيزة وأنا في الصف الثاني ثانوي وبدأت الدراسة بكل جد واجتهاد، كان يدرّسنا الفقه عالم جليل ورجل نبيل اسمه الشيخ عبدالعزيز المساعد، وكان يحبني ودائماً ما يطريني في الفصل ويمدحني وإذا عجز

.indd 64 20/02/2019 10:20:26

الطلاب عن حل أي مسألة فقهية يناديني قائلاً: يا أحمد، أنت لست معفياً من الإجابة، إنه يدفعني لإعطاء الجواب من غير ممارسة التسلّط والأمر المباشر.. الشيخ عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ كان كفيفاً، وهذه أول مرة في حياتي أدرس على يد شيخ كفيف، وإن كنت أعرف كيف أتعامل مع المكفوفين بحكم أن زوج أمي وولي أمري العم حسين العرفج ـ رحمه الله ـ كان من هذه الفئة المباركة.

رحم الله الشيخ المساعد، فقد كان يدعمني بكل صدق، ولن أنسى كلامه وقت وداعي له حين غادرت المعهد، حيث قال لي: يا بني، إنني أرى فيك ذكاءً وصفات طالب العلم فحافظ على طلبك للعلم وستكون أحمد بن حنبل المعاصر.

أما الأدب فقد كان يدرسنا مادته الأستاذ القدير عبدالرحمن التركي والد صديقنا الأديب المذيع الكاتب بجريدة "الجزيرة" والمشرف على ملحقها الثقافي د. إبراهيم التركي.

كان الأستاذ عبدالرحمن عالماً بالأدب ضليعاً به، عندما يتحدث عن الكتب كأنه يقرأ من أوراق أمامه.. كان شخصاً حازماً وثقيلاً لا يغضب إلا عند الضرورة. لقد درسنا الأدب فصرنا أدباءً بالفطرة والتدرب.

ثم بعد ذلك كلفته إدارة المعهد بتدريس مادة "النحو".. وكانت مادة صعبة تعتمد على شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك، لذا كان هو الأجدر والأقدر والأمهر، بعد رحيل أستاذ النحو في المعهد العالم عبدالرحمن العبيكي، للتدريس في فرع جامعة الإمام بالقصيم.

.indd 65 20/02/2019 10:20:26

كان العالم عبدالرحمن العبيكي أستاذا ذكياً يتميّز بلباسه الأبيض الغارق بالنبل مع غترة بيضاء من غير عقال، ومن حزمه مع الطلاب كان يلبس نظارةً سوداء، رغم أنه غير كفيف فيبدو شكله وكأنه شكل الأديب المصري طه حسين أو المطرب المصري سيد مكاوي، أما سبب لبسه للنظارة فهو للتمويه حتى لا يدرك الطلاب أين يتجه ببصره، لذا يبقى كل الفصل في حالة هدوء وسكون، لأن كل طالب يعتقد أن الأستاذ ينظر إليه.

وفي الجهة المقابلة كان يدرسنا الأدب الأديب الشاعر حسين الفايز ـ متعه الله بالصحة والعافية ـ وهذا الاسم جميل في ذاكرتي فقد عرضت عليه أول قصيدة كتبتها في حياتي وكانت أغلب أبياتها مكسورة، ومع هذا كتبها على السبورة، وبدأ زملائي في الفصل يتضاحكون عليها وعلى بنائها، فما كان منه إلا أن قال: اسمعوا، لقد كنا تلاميذ مثلكم، كان بيننا طالب يحاول أن يكتب شعراً، مثل زميلكم العرفج تماماً، وكنا نضحك عليه، وها هو الآن من الشعراء الأدباء الكبار، أما نحن فقد بقينا كما نحن، واتضح أننا نضحك على أنفسنا ولكن بشكل استباقي.

بدأت أكتب الشعر، ولم ينته العام حتى صرتُ معروفاً بلقب الشاعر وكان هذا اللقب يدغدغ مشاعري ويجعلني أتطاول على زملائي.

في تلك المرحلة كنت نشيطاً في الكتابة والنشر، وكانت جريدة "الجزيرة" حقلاً فسيحاً لحماقاتي الكتابية، ولازلت أذكر كيف تلاسنت مع الأستاذ الصديق ـ فيما بعد ـ حماد السالمي بسبب بيت من الشعر.. تماماً مثل تلك المعارك الطويلة التي حصلت بين داحس والغبراء بسبب "ناقة"!

66 .indd 20/02/2019 10:20:26

لقد كنت مفتوناً بالنشر، وأتذكر أنني ذهبت إلى الرياض لمقابلة مشرف الصفحة التي أنشر فيها وهو الأستاذ الإعلامي سليمان العيسى – رحمه الله – الذي شجعني ورحّب بي ثم أخذني ليقدمني إلى الأستاذ – الذي أصبح صديقاً فيما بعد – محمد الوعيل.. ولن أطيل في هذه الناحية لأنني أجهز كتاباً في الوقت الحالي يحمل عنوان: "المخفي من سيرة أحمد العرفج الصحفي"!.

لقد كانت إدارة المعهد وأساتذته يتناقلون فيما بينهم نبوغ أي طالب، لذا وجدت كل الرعاية والاهتمام في معهد عنيزة العلمي، حيث لا زلت أتذكر كيف كان الأستاذ العزيز أحمد بن عبدالرحمن القاضي، مدرس "العقيدة الحموية" لابن تيمية، أستاذاً رائعاً في خلقه ولطيفاً في تعامله. وكان طالباً في آخر سنة في الطب، ولكن هجوم الصحوة وعاصفة الاهتمام بالعلم الشرعي جعلته يترك الطب ويتجه إلى دراسة العقيدة ليصبح مدرساً لمادتها.. ولا أدري أين ذهبت الدنيا بذلك الإنسان الخلوق.

كان يشرف على المسرح في المعهد والمحاضرات التي تقام هناك، وكان من حسن ذاته يثق بفصاحة لساني لذا يجعلني أقدّم المحاضرات وأقرأ الأسئلة، ثم أعطاني دور فرعون في مسرحية الحفل الختامي، كما أعطاني دور رجل إغاثة قادم من إفريقيا يجيب عن الأسئلة ويصف المجاعة، وكانت المجاعة في إفريقيا عام ١٤٠٤هـ في أوج اتساعها وانتشار أخبارها.

نجحت في دور فرعون في تلك المسرحية، كما نجحت في المقابلة، وتقمصت الدور كأحسن ما يكون، ثم بدأ الحوار معي بصفتي قادمًا من

.indd 67 20/02/2019 10:20:26

إفريقيا، وكان أول سؤال موجه لي يقول: "ما سبب المجاعة؟" وكنت غلاماً كامل البراءة والصدق والصراحة، فقلت: "يقول علماء الطبيعة: إن سبب المجاعة يرجع إلى نقص الأمطار التي لم تهطل منذ سنوات... إلخ".!

وكان من عادة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ "تشريف" الحفل الختامي كل عام، وبعد انتهاء ذلكم الحفل، طُلب من فضيلته ـ كالمعتاد ـ أن يعلّق ويلقي كلمة توجيهية لأبنائه الطلاب.

فقام من مكانه وأخذ مكبر الصوت وحمد الله وأثنى عليه وامتدح الحفل ثم قال: ولكن لديّ ملاحظة تخصّ الرجل الذي كان يتحدث عن المجاعة في إفريقيا، حيث قال: "يقول علماء الطبيعة" وأنا أقول لهذا المتحدث ما دخل علماء الطبيعة في ذلك؟! إنّ المطر من الله عز وجل وبيده سبحانه، ثم استرسل كثيراً، ثم قال: يجب على هذا المتحدث وغيره أن يبتعدوا عن مثل هذه الكلمات التي ما أنزل الله بها من سلطان، هذا ما حصل بالضبط.

والحمد لله أنّ الحفل مسجل والكلمة موجودة حتى لا يقول أحدهم إنني مثل الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل أضع الكلام على ألسنة الموتى.

كانت عنيزة ـ حينذاك ـ مدينةً صغيرة والأخبار تنتشر فيها مثل انتشار الغبار في الجزيرة العربية، لذا بدأ الكل يتحدث بأن الشيخ العثيمين "وبّخ العرفج"، ولا أنكر أن هذه الحادثة تركت في نفسي أثراً سيئاً، بذلت جهداً كبيراً حتى أمحوه والحمد لله قد فعلت، بعد أن دعوت ربي بأن يرحم الشيخ ابن عثيمين وجميع موتى المسلمين.

.indd 68 20/02/2019 10:20:26

ومن أساتذة المعهد المميّزين الذين لا يمكن أن أنسى فضلهم الأستاذ صالح العليان – متّعه الله بالعافية – فقد كان يدرسنا مادة التعبير، وقد لمح فيّ نبوغاً مبكراً فأحب أن يضع رصيداً له في بنك معارفي وطموحي، فاقترب مني في إحدى حصص مادته، وقال: يا أحمد، أريد أن تأتي إليَّ هذا المساء في منزلي، ودفع لي بالعنوان.. الحقيقة أنني امتلأت رعباً من طلب كهذا، فأنا ما زلت غلاماً وليس من عادة المدرسين دعوة التلاميذ لزيارتهم في منازلهم.

لقد كنتُ دائماً حسن الظن – ويا رب أستمر كذلك – فوافقت وقلت له سأحضر عمي معي.. فقال: ذلك أفضل وأجمل وأكمل.

وفعلاً أخذت معي عمي، الذي هو زوج أمي الأستاذ حسين العرفج، وذهبنا إلى منزل الأستاذ صالح العليان وطريقنا عامرةٌ بالأسئلة والاستفهامات حول ماذا يريد هذا الأستاذ من دعوته لي؟!

قرعنا الباب ففتح لنا وكان في أهبة الاستعداد لاستقبالنا، جلسنا وبدأ الحديث الذي تخلله قرع فناجيل القهوة والشاهي وبقايا التمر الذي يتمايل في أفواهنا.. جلسنا قرابة الساعة وكان الحديث عاماً، ولم يخبرنا الأستاذ بأي شيء ولم يطلب شيئاً.. وعندما هممنا بالانصراف، ذهب إلى داخل منزله وأحضر "كرتونة كبيرة" محشوة بالكتب المنوّعة، وقال هذه هدية لك يا أحمد، وتأكد أنني انتقيتها بعناية لكي تثري مساراتك الأدبية، التي بدأت ألمس فيها بروزاً وبزوغاً.

.indd 69 20/02/2019 10:20:26

أخذت ما أعطاني وأمطرناه – عمي وأنا – شكراً وثناءً وتقديراً، وذهبنا ونحن نردد قائلين: فعلاً الدنيا ما زالت عامرة بالخير.. عامرة بأناس يعملون بإخلاص لوجه العلم والمعرفة، ولا يريدون مقابل ذلك لا جزاءً ولا شكوراً.

فعلاً، في معهد عنيزة العلمي، وجدت نفسي حيث وُلد أحمد الشاعر وأحمد الموهوب وأحمد المتفوق، لقد جاءت الاختبارات ونجحت وكنت من الأوائل في تلك السنة، بعدها جاءت الصيفية وذهبت إلى الرياض للعمل هناك، وللتخلّص من مشكلة اجتماعية تخصني أنا وشخصاً آخر لا داعي لذكرها هنا لأنها لا تفيد أحداً حين يقرأها!

وفعلاً وصلت إلى الرياض وعملت في إدارة الجمارك مؤقتاً، وانهمكت في العمل نهاراً وفي المساء انخرطت في دورة لمدة شهر في مركز التدريب المهني في الرياض قسم الكهرباء، بعدها انتهت الإجازة فعدت إلى أهلي في عنيزة وقد مسحت كل الآثار السلبية التي صاحبت حياتي في تلك السنة.

في تلك السنة، كنت متفوقاً، رغم أنني أدرس صباحاً وأتدرّب في مركز التدريب المهني في القصيم قسم ميكانيكا السيارات، لمدة ستة أشهر طمعاً في أن أحصل على قرض لأفتح ورشة لإصلاح السيارات، ولكني تخرجت من المركز ولم أفتح ورشة ولم أحصل على قرض فقد جرت الرياح بما لا تشتهي سفني.

في عنيزة زاملت أصدقاء هم الوفاء بعينه من أبرزهم الأحباب: عبدالغني القاضي، وأخوه عبدالسلام، وأديب البسام، وحمد الجزار، وعبدالعزيز السليم، وحمد العليان، وسلطان السلطان، وخالد السلطان، وجابر الصليلي،

.indd 70 20/02/2019 10:20:26

ومساعد الحجيلان، وسامي الحميدي، وسامي الزيدان، وغيرهم، ممن يستعصون عليّ اللحظة.

* * * *

ها نحن نبدأ عاماً جديداً ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م في معهد عنيزة العلمي والدراسة والنشاط يغلّفان بالطموح، لذا بدأت كطالب علم مجتهد.. بذلت كل الجهد في الفصل الأول لأني أبيّتُ خطةً للانتقال في الفصل الثاني إلى معهد الدمام العلمي، لعدة أسباب سأذكرها فيما بعد، وهكذا جاءت نتيجة الفصل الأول رائعة حيث حصلت على تقدير ممتاز، وكان ترتيبي الثاني على المعهد.

وبعد انتهاء اختبارات الفصل الأول حزمت عفشي وقررت الرحيل إلى الدمام، كان معي في تلك المرحلة سيارة ماركة "نيسان" غمارتين أو كما يقول البدو حجرتين وحوش.

حشوت السيارة بعفشي ولم يكن شيئاً كثيراً، بل هو مجموعة من كتب الأدب وملابس أكل عليها الدهر وشرب.

وصلتُ الدمام، وذهبتُ لأختي "أم محمد"، التي كانت تسكن مع زوجها وأولادها هناك، زرتها في أول يوم، وحين هممت بالخروج قلت لها: إنني أبحث عن فندق، ولكنها رفضت وقالت: لا، مستحيل، يجب أن تسكن عندنا، وفعلاً قالت ذلك وأصرّت هي وزوجها وأولادهما ـ ربي يحفظهم جميعاً ـ وأعطوني غرفةً خاصة وأكرموا مثواي، كانوا يسكنون في مدينة العمال

.indd 71 20/02/2019 10:20:27

التي أسستها أرامكو وكان المعهد بجوار حي "العدامة"، حيث الحي الذي كُتبت فيه رواية الصديق الأديب تركي الحمد المسماة "العدامة"، ذهبت إلى المعهد وسجلتُ فيه وقُبلت!

لقد انتقلت للدراسة في الدمام لكي أتخلّص من بقايا مشكلتي الخاصة، ولكي أحصل على سكن في جامعة الإمام بالقصيم التي أنوي الدخول فيها، وقطعاً سيعطونني سكناً طالما أن شهادة الثانوية العامة صادرة من معهد الدمام العلمي.

بدأتُ الدراسة في الدمام وكان عدد طلاب الصف الثالث ثانوي قليلاً بحيث لا يتجاوز ٢٥ طالباً، وكان لهم فصلٌ واحد، لذا كنا نتفق كلنا متى نغيب ومتى نحضر.

* * * *

في هذه المرحلة تعلّمت عروض الشعر العربي، ذلك العلم الذي يُقاس الشعر به ويوزن، وتعلّمت فنون الخطابة والقول، وأساليب التعبير وتعلّمت مصطلح الحديث وأخيراً تعلّمت أصول الفقه وهو من أصعب العلوم الشرعية، حيث يتعلّم الطالب كيفية استنباط الأحكام من النصوص.. وقد أخذت في هذه المادة الدرجة الكاملة ١٠٠ من ١٠٠، وهذا الأمر زاد من ثقتي بنفسي حين أخذت الدرجة الكاملة في أصعب وأقوى المواد الشرعية.

72 .indd 20/02/2019 10:20:27

في هذه السنة عشت أحلى أيام الدراسة، حيث كنا نخرج في نزهات برية نحن الطلاب لوحدنا، و"ياما" شهدت براري منطقة "الرافعية" وما حولها مخيماتنا العامرة بالمودة والاحترام والمتع البريئة.

في هذه المرحلة تعرّفت على أصدقاء طيبين من أمثال عبدالله البليهد، وإبراهيم العمير، وخالد الخضيري، وغيرهم ممن لا يحضرون ساعة كتابة هذا الكتاب.

تخرّجت في هذه السنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م من الثانوية العامة بمعهد الدمام العلمي وقررت الرجوع إلى مدينة بريدة للدراسة في جامعة الإمام فرع القصيم التي فيما بعد – عام ١٤٢٨هـ – دمجت مع فرع جامعة الملك سعود بالقصيم، وصار اسمهما جامعة القصيم، جهزت أوراقي للتقدم لجامعة الإمام، وكان السكن والحصول عليه من أهم مقاصدي، فسألت عن ذلك فقالوا: لا يكفي أن تكون خريج معهد الدمام العلمي للحصول على سكن في القصيم، لذا لا بدّ من إحضار "صك اغتراب"، من محكمة الدمام يفيد أنك مغترب في بريدة، وفعلاً أحضرت شهودي وحصلت على الصك وفي الفهرس صورةٌ من هذا الصك.

وهكذا طويت صفحة الدمام.. والدراسة الثانوية بنجاح تقديره "جيّد جداً"، وحزمت عفشي ويمّمت وجهي شطر القصيم، لأبدأ رحلةً جديدة من مسيرتي التعليمية المليئة بالمدارج والمعارج والمخارج.

.indd 73 20/02/2019 10:20:27

[illegible].indd 74 20/02/2019 10:20:27

الفصل الثالث

من جامعة إلى جامعة والعين دامعة!

ها نحن في عام ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م تخرّجت من الثانوية العامة من معهد الدمام العلمي، وجئت إلى القصيم مجيء الأبطال، فأنا ناجح وبتقدير جيّد جداً مرتفع.

كانت الأسرة الكريمة قد رحلت من مدينة عنيزة إلى مدينة بريدة، وليس بينهما إلا قرابة ٢٥ كيلو متراً، في تلك السنة وافق أهل بريدة أن يدرّس بناتهم كفيفٌ، لذا انتقلنا إلى هذه المدينة التي ولدت فيها وتعدّ مسقط رأسي، كما تحقق لعمي وزوج أمي وولي أمري الشهم حسين العرفج حلمه بأن يسكن بجوار أمه وأبيه – رحمهما الله – وهنا لا بدّ أن أضيف سطراً بكل حب وتقدير وامتنان لوالد زوج أمي، وهو عمي والشقيق الوحيد لأبي، العم محمد بن حسين العرفج، الذي تولى أمرنا بعد وفاة والدنا.. لقد كان عمي محمد رجلاً حكيماً كريماً محباً للخير ينفق بسخاء ويحرص على "الرزق الحلال" لذا كان يتاجر بالعقار، ويشتري ويبيع الأراضي في كل من المدينة ومكة وبريدة، لقد كان عمي هذا رجلاً نادراً في فطنته، وقد كان يساعد كل من يتزوج من الأسرة، وحين تأخرت في الزواج وشعر – رحمه الله – أن

.indd 75 20/02/2019 10:20:27

أجله قد اقترب، لم يفاتحني في الأمر – رغم حبّه الكبير لي – بل وضع مبلغاً كبيراً عند خالي العزيز الذي ربانا علي العجلان – متّعه الله بالصحة والعافية – وقال له: هذا المبلغ أضعه أمانة عندكم، وإذا أراد أحمد أن يتزوّج فادفعوه "مهراً" له.. رحم الله عمي محمد، فقد كان رجلاً في زمن قلَّ فيه الرجال!

سكنّا في جنوب بريدة في حارة على أطراف المدينة في حي يُسمى "حي السلام"، ثم جاء أحد الظرفاء وكتب بجوار "السلام" كلمة "عليكم"، فصار الحي يُعرف بحي "السلام عليكم"!

هذا الحي في طرف المدينة، حيث الكثبان الرملية وأشجار الأثل التي تشتهر بها بريدة، كنت في تلك الأثناء شابّاً في غاية النشاط والطموح وأكتب الشعر وأقرأه وأتذوقه وأدفن نفسي ساعات بين الكتب حتى لا أعلم الليل من النهار.

في تلك الأيام كان حولي عددٌ من الأصدقاء والزملاء الذين كانوا معي في معهدي الرس وعنيزة، وكل منهم يحاول أن يجذبني إلى القسم الذي سيسجل فيه.. لذا دخلت في دائرة الحيرة، وسكنت قرب مربع الارتباك، محاولاً أن أتّخذ قراراً تجاه القسم الذي أريده وأتحمس له.

وللأمانة فإن أهلي – وبالذات أمي وعمي وأخي يحيى –، لم يكونوا ممن يتدخل بين المرء ورغبته، وذلك لأنهم يعرفون أنّ المرء لا بد أن يختار ما يناسبه حتى يُبدع وينطلق كالسهم المنبثق، أو كانطلاقة الكابتن "ماجد عبدالله" نحو المرمى!

.indd 76 20/02/2019 10:20:27

كانت الخيارات كثيرة أمامي.. لذا استقرّ خياري في التسجيل بكلية الشريعة، قسم اقتصاد إسلامي، رغبةً في أن أبني مستقبلي الاقتصادي وأصحح مساراتي التجارية، أقدمت على الاقتصاد رغم أنني ضعيف بل تعيس في الرياضيات والمحاسبة والاقتصاد الكمي والنوعي، ونظريات العرض والطلب.

سجلت في الاقتصاد، أنا ولفيفٌ من الأصحاب وبدأنا نحضر المحاضرة تلو الأخرى، كنت أفهم بعضها وبعضها تمرّ علي من غير فهم، والعجيب أن قسمنا كان شعاره الاقتصاد، ولكن هذا الاقتصاد ليس على حساب المواد الشرعية، لذلك كان العبء ثقيلاً علينا، فنحن ندرس الاقتصاد لنكون اقتصاديين، وندرس المواد الشرعية كطلاب الشريعة!.

في تلك السنة تحمّست وبذلت كل الجهد لتفتيت صعوبة "الإنجليزي"، كما أنني تعبت في فهم "المشكلة الاقتصادية" ولكن حين وصلنا للرياضيات والمحاسبة ومتطلبات العرض والطلب وتناقص المنفعية الحدية، لم أستطع أن أتجاوز هذه العقبات فوقفت كما وقف حمار الشيخ في العقبة.

حاولت وحاولت ثم حاولت، ولكن كان اليأس يحاصرني في كل ناحية واتجاه، لذلك لم أجد مفرّاً من ترك هذا القسم والاتجاه إلى حيثُ أفلح وأستطيع.

تركت القسم، وكان هناك فرصةٌ بعد مرور شهرين من الدراسة للتحويل، وحين فُتحت الأقسام للتحويل والتبديل مباشرةً حولت إلى قسم اللغة العربية الذي سيبدأ في منتصف العام، فالدراسة كانت فصلين، كلّ

77 .indd 20/02/2019 10:20:27

فصل قرابة ثلاثة أشهر، وبعد أن حوّلت تركت الدراسة رغم أن الفصل لم ينتهِ، وجلست في البيت، وكانت أمي ـ رحمها الله ـ متضايقة من وجودي في الصباح وخافت عليّ من الانحراف، جلست هكذا عاطلاً بلا "حافز" ولمدة أسبوعين، بعدها جاءتني فكرة لافتتاح محل في السوق، بجوار جامع بريدة حيث ولدت، فالقلب حنّان إلى مكان الولادة.

حادثت ابن خالي ورفيق دربي فهد العجلان في شراكة بيننا لفتح محل حتى نتعاون على بر رأس المال والأعمال ونبتعد عن إثم الخسارة وعدوان الفشل، فوافق ولن أطيل في الحديث عن هذا المشروع لأنني سأتناوله بالتفصيل في كتاب مستقل تحت عنوان: "الرابح والخاسر في سيرة أحمد العرفج التاجر".

بدأت الفصل الثاني في منتصف عام ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م في كلية العلوم الاجتماعية قسم "لغة عربية" وهكذا انطلقنا أنا وضحايا الأقسام الأخرى، ومن حسن الحظ لم يكن عددنا كبيراً، فقد كنا قرابة الستين طالباً في قاعة واحدة، ولعلّ البعض يستغرب من العدد.. أقول: هذا عدد صغير، لأن بعض الأقسام فيها التسعين والمائة.

درست الفصل الأول وكان وقتي موزعاً بين الدراسة في الصباح وفتح المتجر في المساء، وكانت أيامي كلها عمل، وسكني هو سكن الجامعة، ومن محاسن القدر أن أخي الأكبر صاحب الفضل عليّ يحيى العرفج كان إذا زارنا في القصيم يسكن معي في نفس الغرفة التي يشاركني فيها شاب لطيف من أهل الرس اسمه على ما أذكر خالد الشايع، وهكذا كنت أسكن مع

78 .indd 20/02/2019 10:20:27

أخي حين كنت في "المرحلة المتوسطة" وها هو التاريخ يعيد نفسه ولكن بالمقلوب، ليسكن أخي معي في سكن آخر تابع لجامعة أخرى.

في تلك المرحلة ليس فيها من الجديد سوى أنني نجحت بتفوق في ذلكم الفصل الذي بدأ من منتصف العام.

* * * *

ها نحن في بداية عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م وقد بدأت السنة الجديدة ونجحنا من الفصل الأول إلى الفصل الثاني في المستوى الأول وهكذا صرنا في كل نصف عام نكمل سنة كاملة من سنوات الدراسة، هذه المسيرة جعلتني أفكر بطريقة عملية لأعوّض بها ما قد فات، وأعني به ذلكم الوقت الذي خسرته حين جربت دراسة الاقتصاد.

بدأت أبحث عن الجامعات التي تمنحني فرصة التعويض، وأخذت أقرأ أنظمة الجامعات وساعاتها ومن منهنّ من تعطي فصلاً صيفياً يجعلني أسدّ ثغرة سنة الاقتصاد، تأملت الجامعات واحدةً تلو الأخرى، لم أجد إلا الجامعة الإسلامية في المدينة المنيرة، وفعلاً أرسلت أوراقي فقالوا على الرحب والسعة، نظراً لأنني تحصّلت على تقدير مرتفع في السنة الأولى بجامعة الإمام، ومن ناحية ثانية لأعدّل نسبة السعوديين في الجامعة الإسلامية التي كانت ملزمة بقبول السعوديين على الأقل بنسبة لا تقل عن ٢٠٪ من مجموع الطلاب الذين يتوافدون على الجامعة من كل الجهات الأربع.

79 .indd 20/02/2019 10:20:27

ومن الأسباب التي سهلت لي القبول، أنني كنت في صيف ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م بعد أن فشل المتجر، هاجرت إلى المدينة بحثاً عن العمل، وفعلاً وجدت في رئاسة شؤون الحرمين عملاً وهو مراقب في ساحات الحرم، هذا العمل مكّنني من زيارة الجامعة والتحدث إلى عمادة القبول والتسجيل وأعطوني الضوء الأخضر.

تركت القصيم وجامعتها وكنت قد تحصّلت على كوكبة من الزملاء الذين أفتخر بهم من أمثال عبدالغني القاضي، وإبراهيم صالح السليماني، وخالد بن صالح الخرب.. وغيرهم ممن يفرّون من الذاكرة في هذه الخاطرة.

في تلك المرحلة من الدراسة في جامعة الإمام درّسنا أساتذة أجلاء من أمثال الدكتور حسن بن فهد الهويمل، والدكتور عبدالكريم بكار – لم يكن حاصلاً على الجنسية السعودية آنذاك –، والدكتور عبدالعزيز علام، والدكتور حسن هنداوي، وفخر الدين قباوة، وغيرهم.. أما مادة القرآن الكريم فكانت من نصيب الداعية ناصر العقل.

وكان من أعزّ الأصدقاء في تلك الفترة الدكتور الإصلاحي عبدالكريم الخضر الذي كان في آخر سنة من كلية الشريعة، والزميل طارق اليحيى الذي حاول أن يدرسني مبادئ الاقتصاد، ولكن كتل الغباء التي في رأسي حالت دون ذلك – رغم أن طارقاً هذا كان يدرس في جامعة الملك سعود فرع القصيم – قسم اقتصاد.

وهكذا طويت صفحة دراستي في القصيم التي لم تستمر أكثر من سنة ونصف.

.indd 80 20/02/2019 10:20:27

* * * *

ذهبت إلى المدينة ليس معي بعد المستقبل والطموح إلا دابتي وكانت سيارةً من فئة "كراون" بيضاء اللون تسر الناظرين، وكانت مشكلة السكن تؤرقني، فالجامعة لن تعطيني سكناً بصفتي بدأت معهم في المنتصف، كما أنّ السكن الجامعي في الجامعة الإسلامية لم يكن تلك البيئة الملائمة لي.. فقد كان الطلاب يمشون كالقطار فوق قضبان محددة... يومهم مكوّن من دراسة في الصباح ومذاكرة أو ذهاب إلى الحرم في العصر ومحاضرات بعد المغرب والعشاء ثم يغطّون في سبات عميق حتى فجر اليوم التالي وهكذا.

وقد كان لديّ في المدينة المنيرة بعض الأقارب والمعارف، ولكن كنت أمتاز بصفة الخجل – حين ذاك – لذا جعلت سيارتي هي بيتي، وأصبحت المقاعد الخلفية للكتب والملابس، أما الشنطة فقد كانت غرفة النوم، ففي كل ليلة استوقف السيارة بجوار وادي العقيق الذي قال عنه الرسول – صلى الله عليه وبارك –: "إنه نعم المنزل لولا كثرة الدواب"، نعم أستوقف سيارتي هناك وأنام، وفي الصباح يأتي صديقي الوفي وأقرب الناس إليَّ إبراهيم الفوزان ويوقظني من النوم فأشكره وأذهب إلى أقرب مسجد وأتوضأ وأصلي وألبس ملابسي في أحد الشوارع المهجورة، وأذهب إلى الجامعة كأي طالب يعيش بين أبوين رحيمين.

وهنا دعوني أقول سطراً عن إبراهيم الفوزان هذا، لأنه كان نعم الأخ والصديق والزميل، كنّا هو وأنا في فصل واحد وكان يعطف عليّ ويستحسن

.indd 81 20/02/2019 10:20:27

حكاياتي ومغامراتي ويقف معي وقت الضيق والعسرة.. ورغم أنه خريج "المدرسة الحجازية" ولادة وتربية ونمواً ودراسة وتدريساً، إلا أنه ما زال يحتفظ بطبعه "البريداوي" العريق من حيث سرعة الملاحظة وموهبة التقليد والدقة في اكتشاف الأشياء.. وللتدليل على هذه الموهبة أتذكر أنّ المكافأة الجامعية تأخرت علينا ذات مرة، وكانت كل ملابسي مرهونة عند الغسال، ولم يكن في منزلي أي ملابس داخلية، وكان الغياب يشكل خطراً عليّ، حينها قررت الذهاب إلى الجامعة من غير سراويل، ومضى اليوم دون أن يشعر أو يلاحظ ذلك أحد.. ولكن النبيه إبراهيم الفوزان أدرك ذلك واقترب مني، وهمس في أذني قائلاً: "يا أبو عرفج، وين السراويل"؟ فقلت له: حسبي الله عليكم يا أهل بريدة، الآن، كل هؤلاء الطلبة لم يتنبهوا لذلك.. ما عدا أنت.. يا إبراهيم.. ليتك تغض البصر عني وعن ملابسي. ثم دخلنا في نوبة ضحك وتبادل ابتسامات لم يقطعها إلا الدخول في الحصة التي تلي الفسحة!

لنعد إلى قصة القبول في الجامعة فهي قصة تستحق أن تروى، لأنها أتعبتني في البداية والنهاية، وحتى تتضح الصورة لا بدّ من شرح مفصل بعض الشيء.

الجامعة الإسلامية جامعة أنشئت في فورة "أسلمة" العالم العربي نكاية بالتيار الناصري، وكانت هي من ضمن حزمة إسلامية معتبرة منها التضامن الإسلامي، والجامعة الإسلامية، وميناء جدة الإسلامي، ورابطة العالم الإسلامي، والبنك الإسلامي للتنمية، والأدب الإسلامي... إلخ.

.indd 82 20/02/2019 10:20:27

هذه الجامعة التي للتو سجلت فيها – جامعة تقليدية في نظامها وطريقة تدريس موادها وكتبها، ويهمني هنا النظام الدراسي، فهي لا تختلف عن الثانوية، بمعنى أنها نظام سنوات، يدرس الطالب أربع سنوات كل سنة فصلين ويكون النجاح وفق مجموع ما حققه الطالب في كلا الفصلين، والأسئلة تأتي وعليها مائة درجة مقسمة على خمسين في الفصل الأول وخمسون أخرى في الفصل الثاني، وحتى ينجح الطالب يجب أن يحصل على درجة لا تقل عن ستين درجة.

وحين جئت للتسجيل ذهبت إلى عميد القبول هناك، وكان اسمه على ما أظن د. تركي العطيشان، وأسرته مشهورة في بريدة، وترتبط بنسب مع الملك عبدالله بن عبدالعزيز.

دخلت على العميد ورحب بي، ثم حوّلني إلى وكيله وعلى ما أظن أنه الدكتور فلان المحيسن.. ذهبت إلى الوكيل وأجرى مقابلة شخصية لي استمرت ساعةً كاملة، وكان ثوبي طويلاً قليلاً وشعر لحيتي يعاني من آثار الحلاقة، فابتسم الوكيل في وجهي بعد المقابلة وأعطاني كتيّباً عن نظام الجامعة، قرأته فوجدت من شروط القبول في هذه الجامعة أن يلتزم الطالب بالمظهر الإسلامي وهذا الشرط المقصود به الشكل الخارجي للطالب، الذي لم يتوفر فيَّ من خلال شعر الوجه وطول الثوب.

وللأمانة فلم يكن هذا الشرط، الذي لا أدري هل ما زال باقياً أم لا، لم يكن مؤثراً على قبولي، حيث أرسلني الوكيل إلى العميد وقد كتب كلاماً كثيراً على ملفي الذي تقدمت به إلى الجامعة.

.indd 83 20/02/2019 10:20:27

ذهبت إلى العميد وإذا به يقرأ ملفي ثم ابتسم ونظر إليَّ وقال: على البركة، لقد قبلناك يا أحمد.. تمتمتُ بشكره والدعاء له، ولكنه قاطعني وقال: ولكن هناك شرط واحد قد يكون من الصعب عليك تحقيقه والمسألة ترجع إلى حرصك وجهدك في النهاية – قلت له وكلي خوف وهلع: وما الشرط حفظك الله؟!

قال: تعرف يا أحمد أن جامعتنا تختلف عن جامعة الإمام وأنت الآن درست سنة كاملة هناك وأتيتنا في منتصف العام ومن الظلم أن توضع في السنة الأولى، ومن الظلم للجامعة أن توضع في السنة الثالثة، وأنت لم تبدأ معنا إلا قبل نهايتها بثلاثة أشهر.

فقلت: – وقدماي ترتجفان – ما العمل بارك الله فيك؟ فقال: لقد قررنا أن نضعك في السنة الثانية وفي نهاية العام سيكون لديك اختباران، الأول مع الطلاب والثاني سيكون اسمه "امتحان تخلّف" وهو خاص بك وحدك دون غيرك من التلاميذ لنختبرك في المواد التي فاتتك في الفصل الأول!

الحقيقة أن الخيارات كانت صعبة في هذه اللحظة، فمن المستحيل أن أعود إلى جامعة الإمام، وبنفس القدر من الصعوبة أن أختبر اختبارين في كل مادة وفي كل يوم.

قبلت التحدي الثاني وسجلت، وذهبت إلى الفصل ودخلته والإحباط يعتريني فقد جئت في الحصة الرابعة، والطلاب يدرسون مادة اسمها "أصوات ولهجات" والأستاذ رجل عالم عميق من أصل باكستاني اسمه "فا عبدالرحيم" رحمه الله حياً أو ميتاً.

.indd 84 20/02/2019 10:20:27

دخلت المحاضرة ورحب بي الأستاذ فا، وبعد انتهاء الحصة التفّ الطلاب حولي وكأنني طالب جاء من المريخ، هذا يسأل، وذاك يرحّب، وثالث ينظر إليّ بصمت، في هذه اللحظة تعرفت على إبراهيم الفوزان، فأخذ يحدثني بمفردات "قصمنجية" محاولاً تطييب خاطري، وإيناس وحشتي.. رغم أن المدينة هي الأنس ولا يشعر بالوحشة إلا من كان خارجها.

بدأت الدراسة بجد واجتهاد.. كانت المواد جديدة عليَّ، نظراً لأن الفصل غالبيته من الجاليات الإسلامية ولم يكن عدد السعوديين يتجاوز أصابع اليدين، في تلك السنة بدأت أدرس مادة اسمها "حاضر العالم الإسلامي"، ومادة الأصوات، ومادة مذاهب معاصرة... إلخ.

حتى النحو الذي أحبه فقدت متعة دراسته، لأن الكتاب المقرر علينا كان في غاية الصعوبة، كتاب اسمه: "حاشية الأشموني" على ما أذكر.

في تلك السنة عانيت أقسى أنواع التعب والمعاناة في الدراسة وقد كنت لا أنام من الليل إلا قليلاً، لأنه مطلوب مني مذاكرة مضاعفة، وكل مادة يدرسها الطلاب أنا أدرسها مضاعفة وكان الكل يسخر مني ويستهتر، قائلين: يا أحمد، جهز نفسك لإعادة السنة.. فأنت من المستحيل أن تنجح.. وهكذا، لقد كان كلامهم هذا وقوداً يشعل التحدي بداخلي، وقبلت التحدي ووضعت أمام دراستي عبارة شكسبير المشهورة، "أكون أو لا أكون"، «To be or not to be".

في تلك الفترة من الدراسة في الجامعة الإسلامية – كنا ندرس في كلية اللغة العربية، وأكثر طلاب الكلية يستعدون ليتخرجوا دعاةً وهداةً مهتدين،

.indd 85 20/02/2019 10:20:27

لذا كنت أتضايق من إغلاق باب الكلية وقت الصلاة، حرصاً من الكلية على إبقاء الطلاب داخل مبنى الكلية، ولا يسمح لهم بالخروج إلا بعد الصلاة.

هذا المشهد كان غريباً بالنسبة لي، إذ كيف تثق الجامعة بطلاب سيكونون دعاة وهم لا يصلون إلا بالقوة والمحاصرة وقفل الأبواب والمنافذ..؟!

في ذاك العام كان الطلاب يتناقشون عن إمكانية الدراسة بعد الفجر في رمضان، كما يتناقشون حول تحويل الفصل من كراسي إلى حنابل وسجادات تُفرش على الأرض!.

وللأمانة، فقد كانت أوضاع الجامعة غريبة وعجيبة، لذا أخذت بعض الملاحظات وذهبت بها إلى مدير الجامعة حينذاك، وكان رجلاً بسيطاً متواضعاً ولم يكن أمام باب مكتبه سكرتير يحدد الذي يدخل والذي لا يدخل، أو يصرّف المراجعين ويقول: "المدير في اجتماع"!

قابلت معالي مدير الجامعة وهو معالي الدكتور عبدالله بن عبيد، الذي صار فيما بعد وزير التربية والتعليم، وسلّمته ورقة فيها كل ملاحظاتي حول الجامعة.. أخذها وقال بكل لطف: "يا ولدي، تعال بعد أسبوعين لأناقشك في ملاحظاتك".

وفعلاً، جئت بعد أسبوعين، وأجلسني بجواره وأغلق الباب وأخذ يناقشني في ملاحظاتي فقرةً فقرة، بعضها يرد عليها وبعضها الآخر يوافقني عليها، والبعض الثالث يقول: سنفكر في الأخذ بها.

* * * *

.indd 86 20/02/2019 10:20:27

قبل الخوض في طريقة الدراسة ونتيجتها، سأعود إلى موضوع السكن حيث جلست أسابيع وأنا أنام في السيارة، ومرةً كنت بالصدفة أتجوّل في حارتي القديمة ـ حي المصانع ـ فرأيت صديق الطفولة عبدالرحيم الأحمدي، فسلّمت عليه، وأخذتنا الأحاديث، فسألني: أين تسكن؟ فقلت في السيارة، فتعجب وغضب وقال: يا صاحبي: البيت تحت أمرك، لدينا شقةٌ خاصة بالأصدقاء في عمارة الوالد، ألحّ علي كثيراً ووافقت بشرط أن أسكن معه حتى أجد قيمة استئجار منزل شعبي لي.

وافق صديقي عبدالرحيم، وفعلاً سكنت معه ومع أخويه محمد وعمر، وكانوا جميعاً مثالاً للكرم والتقدير والمودة الصادقة.. وأهم منهم جميعاً والدهم العم سعد بن عيد الأحمدي ـ رحمه الله ـ فقد كان كريماً شهماً مزّاحاً مرحاً يلاطف الكل ويحب الجميع.

ومن الطريف أن الشقة كانت في الدور الرابع ورقمها ٩ وهي تحمل نفس اسم فيلم مصري مشهور اسمه الدور الرابع شقة ٩.

* * * *

حسناً، لنعد للدراسة، أخذت الأمر بتحدٍ واضح وصريح وعملت خطةً دراسة، وقسّمت المواد حتى أسهّل المهمة عليّ، كان حفظ القرآن الكريم من الأشياء التي تأخذ وقتاً طويلاً وكان مطلوباً مني جزأين ونصف، بواقع جزء وربع لكل فصل، لذا أجلته لامتحانات الدور الثاني وقررت الرسوب فيه حتى أتفرغ له في الصيفية، وهكذا ركزت على المواد الأخرى وأخذت أدرس

.indd 87 20/02/2019 10:20:27

مع زملائي مرةً، وأدرس المواد الخاصة بي مرةً أخرى، وواصلت الليل بالنهار والمذاكرة كانت بين البيت والحرم المدني الشريف، وجاء الموعد الذي كنت أنتظره وأخافه، وحُشر الطلاب ضُحى، وبدأت الامتحانات في أواخر عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م وكان الطموح يختلط باليأس، والحماس يمازج الاحتباس..!

دخلت اليوم الأول، وبذلت كل جهدي وأبليت بلاءً حسناً، وبعد ساعتين من الكر والفر في ورقة الإجابة سلمت ورقتي، وهممت بالخروج فقال لي مراقب الامتحانات: خذ نصف ساعة "راحة" ثم عد، لنمتحنك "امتحان التخلّف"، وبقية زملائي ذهبوا إلى منازلهم لينامو في قرار مكين، أما أنا فأمامي ساعتان أخريان من الاختبار الآخر.. حقاً، كان وقتاً عسيراً متعباً، ولكن هذه ضريبة من لا يحسن الاختيار، ويجازف في عمره ويذهب للدراسة في القسم الذي لا يفقه فيه شيئاً، مثل الاقتصاد.

أخذتُ أسئلة "امتحان التخلّف" في أول يوم وقرأت الأسئلة كلها فوجدتها برداً وسلاماً على قلبي وقلمي وبدأت أجيب السؤال تلو الآخر حتى انتهيتُ في تمام الساعة الثانية ظهراً، وقد بدأت مع زملائي الساعة التاسعة صباحاً.. مضت أيام الامتحان متتابعة وأنا – كما في مثل بعض الدول العربية – معلناً حالة الطوارئ، ومر الأسبوعان كمعركة لا هوادة فيها ولا ركود ولا سلام، مرت الأيام والساعات وانتهت الاختبارات، وجاء الوقت لآخذ قسطاً من الراحة.

.indd 88 20/02/2019 10:20:27

في وقت الراحة ذاك، وذات صباح كنت فيه مدفوناً في فراشي أداعب أحلامي، وإذا بالباب يُقرع، قمت لأفتحه فوجدت بوجهي الصديق إبراهيم الفوزان يسلّم عليّ و"الحزن" يرسم محياه، وقال: "ما عليش يا أحمد شد حيلك، النتائج ظهرت وأنت نجحت في كل المواد ما عدا القرآن الكريم"، حين قال هذا الخبر قمت – فوراً – وحضنته بكل صدق وفرح وحبور، وقلت يا إبراهيم، أنا سعيد جداً، لأن نجاحي في كل المواد إنجازٌ كبير، أما القرآن الكريم فإنني سأكرمه في هذه الصيفية، وسأتفرّغ لقراءته وحفظه وتجويده.. حينها ضحك إبراهيم وتبادلنا الأحاديث ثم احتفلنا بالنجاح جميعاً، وذهبنا إلى مطعم مشهور بكبسته اللذيذة، اسمه "مطعم جلال".

* * * *

جاء الصيف وأخذ يرمي أشعته الحارة وبدأنا نختفي خلف المكيفات التي تحميني من الحر والفر.. في هذه المرحلة كنت قد تركت منزل العم سعد بن عيد، رحمه الله، شاكراً له ولأسرته ذاك الحب والكرم اللذان غمراني به طيلة مدة إقامتي عندهم.

* * * *

إنها بداية عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٩مـ ولقد استأجرت منزلاً شعبياً في حي اسمه حي "الكردي"، لا يبعد إلا بضعة أمتار عن موقع "غزوة الخندق"، في هذا البيت الصغير المكون من غرفتين وصالة، كوّنت مكتبةً صغيرة، وانفتحت على الثقافة، وصرت أقرأ وأكتب، وزاد إنتاجي الشعري، وبدأت

.indd 89 20/02/2019 10:20:27

أنشره في الصحف وأتذكر أنّ أول قصيدة نشرتها في مجلة "اقرأ" حين كان رئيس تحريرها الأستاذ الصديق أسامة السباعي، كما بدأت أنشر في جريدة "الجزيرة"، وفي تلك السنة تفرّغت لحفظ المطلوب مني حفظه من القرآن الكريم وهو جزآن ونصف، وواصلت الليل بالنهار حتى بدأ العام الدراسي ووضعوني في السنة الثالثة مع وجوب النجاح في اختبار "تسميع القرآن الكريم"!

بدأنا الدراسة وأخذت الأمور بشكل جاد، وبعد أسبوعين دخلت اختبار تسميع القرآن أو "استظهار النص" كما يقول المتحذلقون، ولكن مع الأسف لم أنجح، ثم أعطوني فرصةً أخرى لأتقدم بعد أسبوعين، وفعلاً تقدمت ولم أنجح، وأخيراً أعطوني فرصةً ثالثة وأخيرة ونظراً لأنها آخر فرصة فقد عطف الممتحن عليّ وكان رجلاً فاضلاً من أصل موريتاني وقال: يا غلام، ركّز على أوائل الأرباع من كل جزء، وفعلاً ركزت وحفظت كل أوائل الأرباع ثم دخلت الاختبار، فطلب مني أن أسمع أو كما يقولون: "استظهر النص" وفعلت ذلك بأداء جيّد، وما هي إلا يومين حتى قالوا لي: مبارك، لقد نجحت!.

كانت فرحتي مضاعفة، لأنني أولاً: كسبت التحدي، وازدادت ثقتي بنفسي وذكائي، وثانياً، لأنني صرتُ طالباً سوياً يُطبّق عليه ما يُطبّق على غيره. وثالثاً: لأنني عوّضت الوقت الذي فاتني جراء حماقتي حين سجلت في قسم الاقتصاد وفشلت في منتصف الطريق.

* * * *

.indd 90 20/02/2019 10:20:27

كان السنة الثالثة متنفّساً لي بعد المعاناة الطويلة التي صاحبتني أثناء دراسة السنة الثانية، بدأت في هذه المرحلة ألعب كرة وأكتب شعراً وأنشره، وأسافر كل شهر مرةً إلى أهلي في بريدة.

في هذه المرحلة تعرفت على صديق هو ابن مالك البيت الذي أسكن فيه في حي يقال له "أرض الكردي"، هذا الصديق اسمه فرج.. وكان رجلاً ودوداً، عنده صندوق بريد.. وعلّمني على المراسلة فأخذت أراسل كل الجهات وكل الشرائح، ولا أنسى أنني كنت أمضي الساعات بكتابة الرسائل التي نبهتني إلى موهبة الكتابة التي تسكن تحت أصابعي.. وهكذا كان يمرّ يومي ما بين لعب كرة وكتابة وشعر وزيارة للأصدقاء وممارسة المراسلة.

في تلك السنة تعرّفت على أصدقاء من أمثال الأديب الكاتب محمد الدبيسي، والكاتب محمد السحيمي، والدكتور عبدالعزيز شديد العوفي، والدكتور المرابط ولد المجتبى، وقد كان بيني وبينهم مراسلات ومساجلات شعرية وأدبية، كما تعرّفت على علي الشهري، وعبدالعزيز بن علي العمري، ابن الشيخ الذي كان يقرأ على "الممسوسين" ومن دخل فيه "جنّي"، كما تعرفت على الكاتب المعروف عبدالله الجميلي، والأستاذ عبدالعزيز عبدالكريم الرفاعي، وإبراهيم الصبياني، وكل هؤلاء كانوا زملاء لنا في الدراسة وفي نفس المستوى ما عدا الصديقين العزيزين المحمدين الدبيسي والسحيمي فقد كنا نسبقهما بسنة واحدة.

في هذه السنة أصابني الغرور، فأخذت أنفق الساعات في اللهو واللعب والتفريط في جنب الدراسة ومرت السنة والاختبارات على الأبواب.. لذا

.indd 91 20/02/2019 10:20:27

صرتُ حائراً بين المواد.. من أين أبدأ، وكيف أبدأ؟.. ووسط الحيرة، ومن دون علمي مرت الاختبارات على بساط البركة ونجحت بالخروج من فم الزجاجة، وتجاوزت هذه السنة بتقدير جيّد، هكذا حافاً جافاً.

وفي هذه السنة سكن معي زميل عزيز اسمه سليمان الحميضي وكان كريماً شهماً يطيل شعره ويخرج وجهه من لحيته كأنه رجل يطل على الناس من خلال "كفر سيارة"، وقد كان جاداً في الدراسة وأخذ يدرّسني ويشرح لي ما غَمُضَ من مسائل النحو، وأتذكر أنه هو أول من دلّني على الشاعر الكبير بديوي الوقداني العتيبي فقد كان مغرماً بشعره العربي والمحكي الشعبي.

بعد نجاحي من السنة الثالثة إلى الرابعة، لم أذهب إلى القصيم في الصيفية بل جاءت أسرتي لزيارتي، فقضينا أجمل الأوقات وأحلى اللحظات.

* * * *

ها نحن الآن في بداية عام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م بدأنا ندرس في السنة الرابعة وهي سنة التخرج فآليت على نفسي أن أجتهد و"أصير رجل"، كما يقول العوام، لأن هذه السنة ستحدد مستقبلي، خاصة وأنني ما زلت أحلم بأن أكون معيداً في الجامعة، لذا بدأت الاجتهاد والاستعداد.. علّني أحقق شيئاً من أحلامي.

.indd 92 20/02/2019 10:20:27

في تلك السنة، بدأت أضع أسس مستقبلي، وكل ما حصل فيها من أحداث ألقى بظلاله على حياتي فيما بعد.. ولا عجب فسنة التخرّج هي البوابة التي خرجت منها عندما تخرجت من الجامعة.

في هذه السنة تعلّمت الإصرار، فقد كان معنا طالب من دولة جزر القمر واسمه زُبر الله، وزُبر هي جمع مفردة "زبور"، وهو اسم أحد الكتب السماوية، قال تعالى: "وآتينا داوود زبوراً"..!

ونظراً لأن العامة والدهماء لديها معنى "غير لائق" لهذه المفردة، فقد أصبح البعض يعترض على هذا الاسم ويطالب بتغييره.. فما كان من الطالب إلا أن قال: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما غيّرت هذا الاسم الذي أطلقه عليَّ أبي – رحمه الله –"..!

كيف أفجع أبي في قبره.. وقد توفي قبل سنة؟ كيف أفجعه وأغيّر الاسم الذي أطلقه عليَّ؟ إنه أجمل هدايا أبي لي وآخر ما أكرمني به.. وهكذا استمرّ الاسم ومن إصرار هذا الطالب "الأجنبي" تعلّمت الإصرار والتمسك برأيي، طبعاً إذا كان في خانة الصواب..!

في هذه السنة، كنت أتابع الصحف وأحرص على جريدة "الجزيرة"، لأنني أكتب فيها أحياناً، كما أحرص على ملحق الأربعاء، لأنني أنشر فيه أحياناً.. وهكذا، وصادف أن قرأت مرةً خبراً يقول: صدر الديوان الأول للشاعر إبراهيم العواجي، بعنوان: "المداد".. كنت ذاك الوقت مغرماً مفتوناً بالشعر، وأراسل كل من يُصدر ديواناً أطلب منه أن يرسل لي نسخةً من ديوانه. نظراً لأنني أحبّ الإهداءات "الكتب المجانية".

.indd 93 20/02/2019 10:20:27

راسلت الدكتور إبراهيم العواجي – حفظه الله – وراسلت غيره من أمثال الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي الأديب الأريب، والشاعر أبو طارق عبدالله القرعاوي الكاتب الوفي، وفهد العلي العريفي المؤرخ والكاتب المعروف، رحمهم الله جميعاً، ومعالي الوزير الأديب والكاتب التراثي عبدالعزيز الخويطر، وغيرهم كثير، ولا زلت أحتفظ بكل هذه الرسائل، ومن يدري؟ لعلي أنشرها في كتاب يعيد لأدب الرسائل قيمته وأهميته.

راسلت الدكتور إبراهيم العواجي وكان حينذاك وكيلاً لوزارة الداخلية، فقلت في نفسي من المستحيل أن يلتفت رجلٌ بهذا المنصب واللقب إلى طالب يتيم متواضع الحال والمال ما زال يدرس في المرحلة الجامعية.

لم يمضِ إلا وقتٌ قصير وإذا بساعي البريد يحمل لي طرداً كبيراً ممهوراً بختم وزارة الداخلية، وللأمانة حين استلمت الطرد خفت كثيراً، ظنّا مني أنها رسالةٌ من السجون أو الجوازات أو المباحث أو المرور تطالبني بالحضور أو تشير إلى شيء من العقاب على تصرف سيء قمت به يدل على سوء الآداب.. حقاً، لقد نسيت في تلك اللحظة أنني راسلت مسؤولاً كبيراً في وزارة الداخلية!.

قبضت على الطرد بسرعة وفتحته بشكل أسرع، وإذا به ديوان "المداد" لإبراهيم العواجي وبرفقه رسالةٌ أبوية تفيض تقديراً واحتراماً، وما زلت أحتفظ بهذه الرسالة مع ديوانها الجميل، وسأكون شجاعاً وأعترف أنني كنت شقياً بعض الشيء، ففي أول سنة جاءتني هذه الرسالة كنت أضعها معي في السيارة، وإذا تعرضت لمخالفة مرورية أستجدي من يقبض عليّ

.indd 94 20/02/2019 10:20:27

وأقول له: أرجوك سامحني فأنا ولد مؤدب والمخالفة التي ارتكبها كانت من غير قصد، وحتى أثبت لك أنني مؤدب، هذه رسالة من وكيل وزارة الداخلية تدل على ذلك، كما تدل على صداقتي معه، "والعبارة الأخيرة".. عندما يسمعها "البعض من العسكر" تتغلغل بداخله كتغلغل السحر، فتغيّر مسار الموضوع من العقاب إلى الثواب.

إن رد معالي الدكتور إبراهيم العواجي أثّر فيّ كثيراً، فهذا أول مسؤول كبير "يعطيني وجه"، ويجعلني أصاب بالغرور، وامتد تأثيره فيّ بعد التخرج، وكما سنرى في الفصول القادمة.

إن رد الشاعر العواجي عليّ جعلني أختار ديوانه موضوعاً لبحثي، فقد كان نظام الدراسة في الجامعة يشترط أن يكتب كل طالب بحثاً لا يقل عن مائة صفحة في كل سنة دراسية على أن تكون كل سنة مختلفةً عما قبلها، لذا كتبت في السنة الثانية بحثاً في النحو وكان بعنوان: حرف "إلا" واستخداماته في القرآن الكريم، وفي السنة الثالثة كتبت في حقل البلاغة وكان بعنوان: "ابن المعتز وجهوده البلاغية"، وفي السنة الرابعة كان في حقل الأدب، لذا قررت أن يكون بعنوان: "دراسةٌ فنية في ديوان المداد لإبراهيم العواجي"، وكان المشرف عليّ في هذا البحث الدكتور المعروف عبدالباسط بدر أستاذ الأدب الإسلامي وعضو رابطته.

ومن الغريب أن هذه البحوث المقررة علينا كانت مثل رسائل الماجستير في الكم والكيف، حيث يُحدد لكل طالب مشرف وفي نهاية العام هناك لجنة مناقشة تمنح الطالب إما درجة الانعتاق أو الإخفاق.

.indd 95 20/02/2019 10:20:27

بدأت السنة الرابعة وأخذت أواصل الأوقات رغبةً في تحقيق أعلى الدرجات، وسجلت البحث السنوي بعنوان: دراسة في ديوان المداد، وهكذا كانت السنة تمر ما بين دراسة واستعداد واجتهاد.. وكما أتذكر في هذه السنة فقد كانت أموري المالية متواضعة ولم أستطع أن أطبع بحث التخرج لذا كتب طالب كريم من زملائي اسمه العلاوي البحث كاملاً بخط يده الجميل.

* * * *

في هذه المرحلة كانت الحداثة في أقوى مراحلها، وتعيش أعنف الصراعات حولها.. وكانت الجامعة الإسلامية حينذاك قلعةً من قلاع محاربة الحداثة ورموزها وكل من يقترب حولها.. وكنا محمد الدبيسي ومحمد السحيمي وأنا مما نتناول الحداثة بين فترة وأخرى في كتاباتنا النقدية، هذا التحدي السافر لمنهج الجامعة جعلنا قصداً وهدفاً لخصوم الحداثة في الجامعة، لذلك أخذوا يحاسبوننا بشكل فردي.. حيث ضايقوا الصديق الأديب الناقد محمد الدبيسي وشدّدوا عليه القبضة، وأجبروه على كتابة تعهّد خطي يقر فيه بخطئه حين كتب عن الحداثة، وندمه على هذا الفعل، وأنه لن يكرر هذه الحماقة مرة أخرى، ولم يتوقف أذاهم للدبيسي عند هذا الحد بل أخذوا يراقبونه كتابياً ودراسياً، حتى تخرّج، وحين تخرّج أسهموا في إبعاده عن التعيين في مدارس المدينة نكايةً به، وأرسلوه مدرّساً في قرى تبعد كثيراً عن مدينته التي يحبها وفيها أهله وأسرته.

.indd 96 20/02/2019 10:20:27

أما الكاتب محمد السحيمي فقد نسيت كيف وبماذا تعاملوا معه.. ولعلي أسأله حين أراه ونأخذ من السحيمي الخبر اليقين.

أما أنا فقد ابتعدوا عني حين انتشر خبر تواصلي مع الدكتور إبراهيم العواجي من خلال البحث الذي قمت به عن شعره، كما أن عميد الكلية ـ ربنا يستر عليه ـ ناداني مرةً وقال لي: إن أخي مسجون في سجون المباحث منذ فترة، ولا نعرف أين هو، ولماذا سجن، فهل باستطاعتك أن تتوسط لنا عند الدكتور إبراهيم العواجي وكيل وزارة الداخلية؟!.

نظرتُ إلى العميد نظرة شفقة وألم، وتفاعلت معه من خلال لغة جسدي رغم أنه كان غليظاً فظاً معي من أول يوم دخلت فيه الكلية، وقال حين قابلني في أول يوم دراسي.. قال لي بالحرف الواحد: "لا أدري كيف تم قبولك، لأن هذا الإجراء غير نظامي".

رغم كل ذلك ورغم حديثه واستقباله القاسي، فقد تعلمت من أمي ـ رحمها الله ـ لغة التسامح، وثقافة "من عفا وأصلح، فأجره على الله"، لذا تفاعلت معه، ولكني أخبرته أنّ العلاقة بيني وبين الدكتور العواجي هي رابطةٌ ثقافية أدبية خالصة، وأخشى لو طلبت منه مثل هذا الطلب سأسقط من عينه، ويحوّلني من قائمة المحبين إلى قائمة الانتهازيين، ثم إنّ علاقتي معه ما زالت عبر الرسائل، فهو لم يرني، وأنا لم أره، فكيف أطلب منه مثل هذا الطلب الذي لا أدري ما خبره وما فحواه؟! وهكذا انتهت القصة!

* * * *

.indd 97 20/02/2019 10:20:27

في السنة الرابعة كانت الأنشطة الثقافية مع الزملاء من كل مذاق واتجاه، وتواصلت مع النادي الأدبي وتعرفت على الأساتذة الأدباء من أمثال الشاعر محمد هاشم رشيد، والشاعر الصديق الباحث الساخر د. محمد العيد الخطراوي أو كما نسميه "الخطر - أوي"، والشاعر صديق عمي محمد الأديب عبدالرحمن رفّه، رحمهم الله، وغيرهم ممن أعتزّ بهم في كل مكان وزمان.

في هذه السنة ألقيت أول قصيدة شعرية في حفل عام، وكان ذلك في الحفل الختامي لنشاط الجامعة الإسلامية الثقافي عام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

في تلك السنة تفتّحت مداركي على التراث والثقافة والوعي من خلال الاحتكاك المباشر بأساتذتي في كلية اللغة العربية، ومن أهمهم الشاعر السوداني د. أبو بكر دوشن الذي كان يصحح لي الأبيات الشعرية المكسورة.. ثم أصبح يتعاون معي في بعض القصائد.

كذلك كان من أساتذتي الدكتور أحمد البزرة الأديب والشاعر السوري - رحمه الله -، ووالد الطبيب المشهور في عمليات التجميل بجدة د. بشار البزرة.

ومن تلكم الفئة الدكتور عبدالباسط بدر الذي ألّف عدة كتب من أهمها "تاريخ المدينة المنورة" في ثلاثة أجزاء، ومن الأساتذة في تلك المرحلة أستاذ الأساتذة ومثال التواضع د. محمد يعقوب تركستاني، الذي كان يدرسنا خصائص لغوية، فجعلني أُحب "العالم ابن جني" بعد أن كنّا نخاف من "الجن"!

.indd 98 20/02/2019 10:20:28

كما أن الأستاذ د. تركستاني محبٌ للتراث وقد بقي سنوات يصدر ملحقاً لغوياً اسمه "ملحق التراث"، في صحيفتي "المدينة" و"البلاد"، ولا زلت أتذكر أنني كنت سأرتكب حماقةً بإصدار ديوان شعري في تلك المرحلة، ولكني حين عرضت مسودة الديوان عليه، قال لي: يا ابني، ليتك تتريث قليلاً، فالمطابع لن تغلق غداً.

ومن أساتذتي في تلك المرحلة الأستاذ العلامة في النحو د. علي بن سلطان الحكمي – رحمه الله – ولقد حبّبنا باللغة الفصحى، حيث كان لا يتحدث إلا بها ولكن بطريقة موسيقية جذابة وفيها إيقاعٌ ذكي، وقد كان يدرّسنا النحو الجاف فجعله مادةً محببةً وقريبة من المتعة والالتحاف.

وفي تلك المرحلة درّسنا الدكتور أستاذ النقد المعروف طه أبو كريشة وكيل جامعة القاهرة "الآن" وكان محباً لي وأنا أحبه وأحترمه أكثر مما كان هو يفعل.

وفي هذه المرحلة درّسنا أستاذ مادة الصرف المشهور عبدالعزيز الصيرفي، وقد أهداني كتابه في الصرف رغم أنه نفد من الأسواق، كما درّسنا في هذه المرحلة الأستاذ الخلوق د. عبدالعزيز الفريح، الذي كان يحفظ التاريخ عن ظهر قلب.

وفي هذه السنة درّسنا الأستاذ د. عبدالكريم بن صنيتان شقيق الدكتور المعروف مرزوق بن تنباك، والكاتب محمد بن صنيتان، وكان أنيقاً رقيقاً رغم أنه يدرس مادة الفقه الصعبة وكتابها المقرر علينا هو "نيل الأوطار" للإمام الشوكاني.

.indd 99 20/02/2019 10:20:28

أما معلّمنا في القرآن، فهو عالم القراءات المعروف الذي يرد اسمه في كل مصحف لأنه أحد أعضاء لجنة الإشراف على طباعة المصحف في "مطبعة الملك فهد لطباعة المصحف الشريف" هو الدكتور عبدالخالق جادو، وكان رجلاً ودوداً ويعرف أنني يتيم، لذلك حين أقرأ، يأخذ بالمسح على رأسي لعلمه أن المسح على رأس اليتيم صدقة.

في تلك المرحلة درّسنا الدكاترة عايض الحارثي وعمر باحاذق، وكانا مثالين للتواضع والمساعدة وبذل الوسع وكل ما من شأنه تثقيف الطلاب وتطوير مسيرتهم التعليمية.

وفي تلك السنة درّسنا البلاغة الأستاذ المشهور في هذا الحقل الدكتور علي البدري وكان غريباً في حضوره، لأنه طوال العام يأتي ومعه حقيبة فخمة، ولا أذكر أنه في أي محاضرة من محاضراته قد فتحها، لدرجة أننا صرنا نشك في محتويات هذه الشنطة أهي كتب ومراجع أم أموال وودائع..!

وكان من أظرف الدكاترة أستاذ البلاغة المصري د. جلال الذهبي الذي كان يستلطفني كثيراً، ويمازحني دائماً، ومن طرائفه وممازحاته، أنني جئت مرةً إلى الفصل "منفوخ الشفة السفلى" من جرّاء "عضة" بعوضة شريرة حينها نظر إليَّ "كالعادة"، ثم قال: ما هذا يا غلام؟ هل تزوجت من دون أن نعلم؟ فقلت: نعم تزوجت، يا أستاذي ولكن رغماً عني، والزوجة كانت بعوضةً لعينة قبّلتني في شفتي السفلى.. فضحك هو ومن معنا من الطلاب.

ومن طرائفه، أنني جئت مرةً إلى الفصل متأخراً، وحين دخلت كان في وجهي، فقال: أين كنت يا ولد، فقلت: كنت في مستشفى الجامعة؟ فقال على

.indd 100 20/02/2019 10:20:28

الفور: حامل إن شاء الله؟ عندها، ألهمني الله إجابةً سريعة، فقلت: نعم، "حاملٌ للتقوى والإيمان" يا أستاذي.. فقال: هل سمعتم يا طلاب: هذه سرعة البديهة، ومن الصدف أنه كان يشرح للطلاب قبل دخولي فناً من فنون البلاغة اسمه حسن التخلّص وسرعة البديهة.

* * * *

كانت الجامعة في ذلك الوقت تضم خيرة أساتذة الأزهـر، وخيرة السعوديين المميزين من خريجي جامعة أم القرى، وبعض المعيدين في الجامعة الإسلامية من أبناء بادية المدينة وما حولها، لذلك كانت الجامعة غنيةً بالعلوم والعلماء، وأحمد الله أنني كنت أحد خريجيها الذين نهلوا من العلم وتعلّموا وتدرّبوا على الفكر والثقافة، وهذه السيرة وكتابتها هي محصول – إلى حد كبير – من محاصيل تلك المرحلة.

وهنا نحن في نهاية السنة الرابعة وفي عام ١٤١٠هـ وفي بداية عام ١٩٩٠م اختبرنا ونجحت بتقدير "جيّد جداً"، ولكن الجامعة كانت تحسب النتيجة النهائية وفق المعدل التراكمي للسنوات الأربع، ومع الأسف أنني نجحت في السنة الأولى بجامعة الإمام بتقدير "جيّد جداً"، وفي السنة الثانية بتقدير "مقبول" من الجامعة الإسلامية ثم تجاوزت السنة الثالثة بتقدير "جيّد"، وفي السنة الرابعة بتقدير "جيّد جداً" في نفس الجامعة الأمر الذي جعل المعدل التراكمي "جيّد"، وهذا جعلني أدخل في دائرة الإحباط واليأس، لأن كل أحلامي تحطمت على صخرة الواقع، فلا قبول في الإعادة، ولا حماس لتعليق الشهادة على جدران بيت أمي رحمها الله.

.indd 101 20/02/2019 10:20:28

هذا التقدير "اللعين" جعلني أرتدي معطف الحماقة وأذهب إلى الكلية وأتخاصم مع منسوبيها، وكان تصرفهم معي في منتهى الحلم، لقد تطاولت على الكلية ولجنة الإشراف على الامتحانات، ولكن كانت كل صرخاتي "بوادي لا صدى يوصل" كما يقول المطرب طلال مداح - رحمه الله -، لذا قررت أن أنقل المعركة إلى عمادة القبول والتسجيل، فذهبت إلى هناك شاكياً فوجدت أن الدكتور الذي وافق على قبولي في الجامعة وهو الرجل الفاضل د. العطيشان قد ترك الجامعة، وحل محله الوكيل الدكتور المحيسن الذي يعرفني، حيث أجرى لي المقابلة الشخصية أثناء تسجيلي في الجامعة، دخلت على عميد القبول "الجديد"، وتحدثت إليه بصوتٍ عالٍ وبتضجر واضح، فتركني حتى انتهيت، وقال: نحن لا نريد أن نحاسبك على الخلل الذي في شهادتك، لأنك تخرجت من الجامعة ولم تدرس السنة الأولى عندنا! كيف نعطيك شهادة وأنت على سبيل المثال لم تدرس كتاب "بداية المجتهد ونهاية المقتصد"، في العقيدة، لذا هيا اخرج من المكتب واحمد الله أننا تجاوزنا عنك هذا الخلل في الدراسة.

طبعاً كان الدكتور المحيسن قد درّس زملائي في السنة الأولى هذا الكتاب لذلك لم يزل يذكر هذا الكتاب ومادته وطلابه.

أخذت شهادتي والغصة تجتاح حلقي والألم يسرق بدني، والحزن يخيّم على أملي، أخذت الشهادة وبكيت بكاء الأطفال، وجلست حبيس البيت، مثل شاعرنا الكبير أبي العلاء المعري، جلست أفترش الحزن وأقتات على اليأس،

.indd 102 20/02/2019 10:20:28

وأتظلّل بظل التشاؤم.. وأتهرّب من كل صديق ورفيق وشقيق.. فالآمال قد تحطمت والطموحات قد تصدعت والأماني قد حُصيت.(لم أفهم قد حصيت؟)

هكذا كان حالي!

في هذا الوقت جاءتني دعوةٌ لحضور حفل تخرّجي في الجامعة على شرف أمير المنطقة سمو الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز – رحمه الله – ولم يكن أمامي إلا رفض الدعوة ونمت في ذلك المساء، كان ينادي عريف الحفل على اسمي لآخذ شهادتي وكنت وقتها أغطُّ في سبات عميق حتى لا أحلم بكابوس يقول: لقد تخرّجت يا أحمد بتقدير جيّد.

في ذلك المساء، ذهب الصديق الوفي إبراهيم الفوزان واستلم الشهادة بدلاً عني.. أما أنا فقد دخلت في دورة حزن، ولم أخرج منها إلا بعلاج الترحال والسفر.

في هذه السنة كان أخي الشقيق المكافح وصاحب الفضل عليَّ الحبيب يحيى العرفج مبتعثاً في مدينة أدنبرة البريطانية لدراسة الترجمة الفورية، حيث كان يعمل في رقابة المطبوعات بوزارة الإعلام، وأراد المسؤولون أن يحوّلوه إلى رقابة الصحف البريطانية، فابتُعث إلى هناك، وفعلاً ذهب وحصل على الماجستير من هناك، وعاد ليباشر عمله في الرقابة وقراءة الصحف البريطانية قبل دخولها إلى السوق.. ومن ثم يحدد ما يُسمح به وما لا يُسمح، وما زال حتى يوم الناس هذا يمارس العمل نفسه، رغم عدم قناعته الشخصية به، ولكن العمل عمل بغض النظر عن القناعة به.

.indd 103 20/02/2019 10:20:28

لقد تخرّجت في أواخر عام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، وبقي زملائي الذين بدأت معهم في جامعة الإمام في رحم الجامعة لم يتخرجوا بعد، وبقي أمامهم فصلٌ آخر من فصول السنة الرابعة.. وهذا وضع فرقاً بيننا في وقت التعيين وأهميته.

كان وجود أخي الحبيب يحيى العرفج في مدينة أدنبرة البريطانية فرصةً لي لأذهب وأرى العالم الخارجي، وأرى مدى صحة ما درسناه عن الغرب والكفّار وحقد الناس علينا رغم قصر الوقت.. كانت فرصةً لي للسفر لأنسى نتيجتي التي حطمت أحلامي.. فرصةً لأنسى هموم الدراسة، لأنسى التراث العربي الذي عشقته ولم يعشقني.. لأنسى الجامعة الإسلامية التي عشت فيها أجمل أيامي الدراسية ولكنها في النهاية أودعت في صدري خنجراً ما زال ينزف كلما تذكرته!

ولكن الحقيقة بعد كل هذه السنين أقول: من يدري؟! فالخيرة ما اختاره الله – جلّ وعزّ –، وبالمناسبة فإن عبارة جلّ وعزّ وليس "عزّ وجلّ" التقليدية تعلّمتها من أستاذنا الخلوق البروفيسور د. محمد يعقوب تركستاني.

بعد أن وصلتني الشهادة من يد صديقي إبراهيم الفوزان وضعتها في رف بين الكتب، وجلست أجمع كل ما أملك لأسافر إلى أخي الوفي في بريطانيا، وفعلاً اشتريت ما أحتاج من "ملابس الفرنجة"، ودلّني أخي على مكتب سياحي لديه تذاكر مخفّضة، وذهبت إلى مدينة جدة وتقدمت للحصول على الفيزا، وفعلاً تم ذلك ببساطة، حيث كانت الفيزا تصدر في يوم واحد، لا

.indd 104 20/02/2019 10:20:28

كما يحدث الآن، إذ أصبحت الفيزا بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ تستغرق قرابة أسبوعين!

اشتريت تذكرةً رخيصة من الخطوط المصرية، وكانت عملية الغزو العراقي للكويت في أيامها الأولى، لذا أظن أن وجهي وجه شؤم، فحين تخرّجت من الابتدائية احتل جيهمان العتيبي الحرم المكي، وفي سنة تخرجي من الجامعة حدث الاجتياح العراقي لدولة الكويت الآمنة، وحين حصلت على الماجستير حدثت ١١/٩ كما سيأتي.

حجزت عن طريق شاب يعمل في وكالة سياحية اسمه أحمد الحداد، ورتب لي خط سير جميل يبدأ من جدة ومنها إلى القاهرة والنوم فيها ليلة كاملة والسكن في فندق "موفنبيك" الفخم ثم السفر في اليوم التالي إلى لندن، وهكذا تكون العودة، وكل هذا كان بألفي ريال "فقط لا غير" كما هي عبارة أهل البنوك والمصارف!

ذهبت عبر الرحلة المتجهة إلى القاهرة وتمتعت تلك الليلة متعةً كبيرةً وكانت كل المطاعم في تلك الفترة تضع أغنية المطرب أبوخالد عبدالله الرويشد، "أنا باتبع قلبي بس ما علي في الناس"، لأنها أغنية ضاربة ومستحوذة على كل الملاهي وأماكن الأنس في ذلك الحين، سافرت بعدها إلى لندن ومنها في القطار إلى مدينة أدنبرة عاصمة اسكتلندا.. إلخ.

لن أسترسل في هذه الرحلة لأنني سأتناولها بالتفصيل في كتاب مستقل.. مكثت شهراً في بريطانيا في ضيافة أخي وكان من مكتسبات هذه الرحلة أن تعرفت على صديق هو أخي الخلوق الشاعر منصور السماري،

.indd 105 20/02/2019 10:20:28

واقتربت أكثر من ابن أختي الدكتور إبراهيم البديوي، الذي كان يدرس الدكتوراه في جامعة سوانزي.. وهو الذي أخذني في جولة في مكتبات لندن واشتريت وقتها دواوين كل الشعراء الكبار أمثال عبدالله البردوني، وبدر شاكر السياب، ونازك الملائكة، وعبدالرحيم نصار، ومعين بسيسو، ومحمود درويش، وإيليا أبو ماضي، وكتب ميخائيل نعيمة، وجبران خليل جبران، وكتاب "المملكة" لروبرت ليسي قبل أن ينحرف في كتابه الثاني المسمى "المملكة من الداخل"، ذاك الكتاب الذي لا قيمة معرفية له، كما هو انتقاد البروفيسور د. حمزة المزيني له في أحد مقالاته..!

وكانت جامعة سوانزي التي يدرس فيها ابن أختي إبراهيم البديوي تقع في مقاطعة ويلز، وقد زرته هناك ثم ذهبنا إلى لندن ومكثنا هناك سحابة يوم كامل. ثم أوصلني إلى قرابة المطار.. وبعد سنة عاد إبراهيم بشهادة الدكتوراه في علوم الحاسب وهو الآن عميد لكلية الحاسب الآلي بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة.

* * * *

عدتُ إلى السعودية وقد هدأت نفسي واقتنعت برزقي وما قسم الله لي، وبعد أيام زرتُ مدير الجامعة معالي الدكتور عبدالله بن عبيد الذي صار فيما بعد وزيراً للتربية والتعليم، وكانت لي معه علاقةٌ طيبة كما ذكرت سابقاً فرحب بي وهش وبش وعرض عليّ عدة وظائف إدارية، من ضمنها أن أكون داعية في جمهورية سيراليون، كان هذا في نهاية ١٩٩٠م، ومن العجيب أن دولة سيراليون ترسل لنا لاعباً أنيقاً اسمه محمد كالون، ليلعب في فريقي

.indd 106 20/02/2019 10:20:28

المفضل الاتحاد في عام ٢٠٠٦م في حين نحن نرسل لهم دعاةً لتعليمهم العقيدة الصافية "الديجتل".

اعتذرت عن كل العروض وقلت له إنني قادم للسلام عليك، فقال: هذا تواضع العلماء وابتسمت في وجهه وللأمانة هو رجلٌ لطيف ودمث الأخلاق، لذا قلت: يا معالي الدكتور، لقد أتيت لشكرك وتوديعك ثم ذهبت ولم أره مرةً أخرى إلا حين عملت في مجلة "اليمامة" عام ١٩٩٧م حيث زرته لعمل لقاء معه لصالح المجلة.. فاستقبلني استقبال المحب، ولكنه اعتذر عن المقابلة بحجة أنه لا يعتمد على الإعلام، بل يجعل أفعاله تتكلّم عنه، وقد صدق في ذلك.

* * * *

في تلك الأيام ذهبت إلى الرياض وزرت معالي الدكتور إبراهيم العواجي في منزله في حي الربوة شارع النهضة وأهديته نسخةً من بحثي عن شعره، وقد كنت منصفاً وموضحاً الأخطاء الإملائية والوزنية التي في ديوانه.. استقبلني الرجل وأحسن وفادتي وجلست معه قرابة الساعتين، فسألني عن مستقبلي بعد التخرج فقلت له يا معالي الدكتور: إنني يتيم وأسرتي أسرة مستورة وليس لدي واسطة سوى الواحد القهار الكريم الجبار.

فهم الرجل ما أريد، ولا عجب فهو شخصيةٌ ذكية لمّاحة وقال: ـ يا ولدي ـ الآن في الداخلية ليس لدينا أي وظائف مدنية، وتعرف أن البلد مشغولة

.indd 107 20/02/2019 10:20:28

باجتياح العراق للكويت، ولكن أعطني فرصة ومتى توفرت الفرصة سأتصل بك وأدعوك للقدوم.

ذهبت إلى المدينة المنيرة والحزن مطيّتي وسيارتي.. وأخذت اتصل على أصدقائي لأعرف كيف تسير الأمور، وماذا فعلوا لأفعل مثلما يفعلون!

قال لي صديق عمري الدراسي والتدريسي إبراهيم الفوزان بأنهم تقدموا لديوان الخدمة للانخراط في سلك التدريس.

لم يكن أمامي سوى "فعل ما فعلوا" وهكذا تقدّمت إلى الديوان، وبعد أشهر جاء تعييني في منطقة المدينة المنيرة كما طلبت.

ذهبتُ إلى إدارة التعليم ليوجهونني للمدرسة التي يجب أن أدرّس بها.. قابلت شخصاً ظاهره القسوة وباطنه الرحمة، اسمه على ما أذكر "مخيضير الفلاني" وحاول أن يرسلني إلى قرية نائية تبعد عن المدينة أكثر من ١٥٠ كم اسمها الظميرية، فقلت له: يا أستاذي إن أمي – ربي يحفظها – سيدةٌ كبيرة وتريد أن تأتي إلى المدينة كل شهر حبّاً في الحرم ورغبةً في مجاورة الرسول صلى الله عليه وبارك.. أرجوك، لا تحرمني "فضيلة البرّ بها"!

حينها رقَّ قلبه، وقال: حسناً: اذهب إلى متوسطة القعقاع بن عمرو التميمي، وكنت حينها لا أعرف شيئاً عن مواقع المدارس.. فقلت: حرام عليك، لماذا ترميني بعيداً هكذا؟!

فقال: يا أستاذ، اتقِ الله إن مدرسة القعقاع في شارع العوالي بجوار الحرم، حينها شكرته وشكرته وشكرته حتى غيَّبه الطريق في المكتب

.indd 108 20/02/2019 10:20:28

الآخر.. لن أطيل هنا في وصف هذه الوظيفة لأنني سأذكرها بالتفصيل في كتاب مستقل.

عملتُ في التدريس لمدة أربع سنوات، وكانت عيني على الدراسات العليا والمواصلة الأكاديمية ـ ولكن لا سبيل إلى ذلك. ومرّت الأيام بكل برود وخمول ولا جديد فيها غير شروق الشمس، وطلوع القمر، وطال هذا السراب.. حتى جاء العيد ففرحت به وقلت: لعلِّي استغلّ هذا العيد كالعادة واتّصل بمعالي الدكتور إبراهيم العواجي وكيل وزارة الداخلية، وفعلاً عايدته وشكرته، وإذا به من نفسه يقول: أحمد أنت ما زلت تريد عملاً في وزارة الداخلية.. لأنني أريدك هنا معنا في مجلة "الأمن"* حيث نحتاج إلى شاب متحمس واثق مثلك.

فقلت: هذه أمنيتي يا معالي الدكتور، فقال: طيّب! ارسل لي بالبريد طلبك وأرفق معه كل الوثائق الرسمية المتمثلة في صورة الحفيظة وشهادة التخرّج، ومعروضٌ لي حتى أشرح عليه.

فعلت كل ذلك في يوم واحد، ثم أرسلتها بالبريد الممتاز، كان ذلك في بداية عام ١٤١١هـ/ ١٩٩٢م وقُبلت موظفًا عسكريًا، برتبة ملازم بأقدمية سنة، بعد تجاوز الدورة التأهيلية للضباط الجامعيين ومدتها ٧ أشهر.

* مجلة "الأمن" مجلة شهرية تصدر عن الإدارة العامة للعلاقات والتوجيه بوزارة الداخلية، أسسها الأستاذ عبدالله أبو السمح قبل حوالي نصف قرن وترأس تحريرها وكان من كتّابها الأستاذ محمد سعيد طيب وعبدالله جفري وفهد العريفي وغيرهم كثير.

.indd 109 20/02/2019 10:20:28

كان ذلك يتطلّب أن أذهب إلى الرياض لمدة يومين لإجراء الفحص الطبي اللازم لكل رجل يريد الالتحاق بالسلك العسكري.

كنت في ذلك الوقت أعمل مدرّساً في مدرسة القعقاع بن عمرو التميمي في منطقة العوالي، ومدير المدرسة هو الأستاذ بل الوالد الفاضل علي سعيد عزوني – متّعه الله بالصحة والعافية – كان كريماً، حبيباً، متسامحاً، لذا سمح لي بالذهاب إلى الرياض وهناك حصلت الصدمة.. فقد دخلت في إجراءات الفحص في مستشفى قوى الأمن وقد اجتزت كل الفحوصات بنجاح ولكن الصدمة أنهم أعادوني إلى حيث مكاني، وقالوا: إنّ وزنك زائد على الوزن المطلوب، لأن المقياس في العسكرية للوزن المثالي هو الطول ناقص مائة، فمثلاً من طوله ١٨٠ فيجب أن يكون وزنه ٨٠ كيلو، ويسمح النظام له بزيادة عشرة أو نقصها.. أي ما بين التسعين والسبعين.

كان طولي ١٦٩ سم، ووزني حوالي ١٠٦ كجم لذا يجب عليّ أن أخفف على الأقل ٢٦ كيلو حتى يحقّ لي أن ألتحق بالسلك العسكري.

خرجت من المستشفى وأنا مذبوح الطموح، ومسدوح الأمل، لا حول لي ولا قوة إلا بالله، ثم بإرادتي القوية التي يجب أن تفتت هذه الكتل اللحمية لأتحوّل إلى رجل رشيق نحيل يليق بحجم البدلة الأنيقة.

في تلك المرحلة كنت حازماً مع نفسي ورجعت إلى دائرة التحدي التي ليست غريبةً عليّ، لذا سكنت في فندق الشيراتون في المدينة، وكنت أدرّس في الصباح، أما في الظهيرة فقد كنت أركض في الشوارع مثل المجنون، وفي العصر ألعب كرة، وفي المساء أذهب إلى حمام الساونا في الفندق

.indd 110 20/02/2019 10:20:28

لأحرق نفسي هناك، ثم أستحم وأنام.. بقيت على هذا الحال لمدة شهرين وبدأ لحمي وشحمي يتساقط كأنه ورق الخريف.. كنت أزن نفسي كل أسبوع، حتى وصلت إلى ٨٢ كم.. حينها ذهبت إلى الرياض، وتقدمت للوزن، ودُهِشَ من كان يشرف على الوزن، لأنني كنت قبل شهرين عنده بوزن، والآن أنا بوزن آخر.. ظنّ أن الميزان قد هَرِمَ وخَرِبَ، ولذا لم يعطِ النتيجة الحقيقية، فطلب ميزاناً آخر فوجد نفس النتيجة.. فقال: سبحان من أعطاك هذه الإرادة!

عُدتُ إلى المدينة المنيرة لأواصل تدريس طلابي القواعد والإملاء والتعبير والنصوص الأدبية.. عدتُ بعد أن اكتملت أوراقي للالتحاق بوزارة الداخلية ـ القسم العسكري، واتصلت على الشخص المسؤول فقال: انتظر قرار تعيينك.. كنت أعمل في التدريس من أواخر عام ١٩٩٠م، ولحسن الحظ أنني تعيّنت في التدريس، وبعدها بأشهر بدأت حرب "تحرير الكويت من الاجتياح العراقي" فأُعطيت المدارس إجازةً طويلة، لذا كنت أحضر فقط آخر الشهر لآخذ الراتب، أما بقية أيام الشهر فأنا أنفقها في القراءة والسفر والجلوس مع الأصدقاء ولعب كرة القدم.. حيث أسست في تلك السنة فريقاً لكرة القدم وأسميته "العميد" تيمّناً بفريقي الحبيب "الاتحاد" وبالمناسبة فقد تخرّج من هذا الفريق حمزة إدريس، ورضا تكر، ومحمد السلال، ومالك معاذ، ومحسن العيسى، وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم.. ولن أطيل في هذا الأمر، لأنه سيكون في بحث مستقل اسمه "الكلام الفاضي من سيرة أحمد العرفج الرياضي" ـ كما ذُكر آنفاً ـ.

.indd 111 20/02/2019 10:20:28

مرّت الأوقات، وأنا عينٌ على التدريس وعينٌ على الوظيفة الجديدة، وبحكم الإهمال الإداري فقد جلست معاملة توظيفي قرابة ثلاث سنوات.. رغم أن واسطتي وكيل الوزارة، وكلما اتصلت على الشخص المسؤول – الذي كان مهملاً ومشغولاً – يقول لي: معاملتك مرفوعة للديوان الملكي!.

لقد كان النظام – وما زال – لا يسمح لأي ضابط بمباشرة عمله حتى يصدر بحقه مرسومٌ ملكي، حيث يكون هذا المرسوم هو قرار تعيينه.. وكنت أنتظر هذا المرسوم، والموظف المسؤول كان يقول لي: انتظر.

وبعد الإلحاح ومواصلة الاتصال، بدأ هذا الموظف يشككني بنفسي ويقول: يا أحمد، هل لديك مشكلة مع المباحث؟ أو القبيلة؟ أو الجريمة؟ فقلت له: أعوذ بالله، إنني مواطنٌ صالح، لا أقترب من أي ممنوع وأتابع القناة الأولى، وأشجع الاتحاد، وأشرب اللبن بعد الغداء، ولدي سيارة "غمارتين"، هذه كل جرائمي، فقال: حسناً، ليتك تتحلّى بالصبر.

تحلّيت بالصبر من عام ١٩٩١م حتى جاءني الفرج في أواخر عام ١٩٩٣م حيث صدر مرسومٌ ملكيٌ بتعييني ضابطاً بوزارة الداخلية بتاريخ ١٤١٣/١٠/٢٨هـ، وهذا التاريخ بالذات، سيلقي بظلاله على كل حياتي الوظيفية.

لن أطيل في تفاصيل هذا الأمر، لأنه سيكون مفصلاً في كتاب مستقل – لذلك ذهبت إلى الرياض وانخرطت بالعمل، وكان لزاماً عليّ أن ألتحق بدورة تأهيلية تعلّمني الانضباط العسكري وفنون الجندية.

.indd 112 20/02/2019 10:20:28

درست في كلية الملك فهد الأمنية لمدة ٧ أشهر "دبلوم علوم أمنية"، ولن أتحدث عن هذه الدورة لأنها دورة خاصة فيها التدريب العملي والعلمي، وقد تخرّجت منها بتقدير "جيّد جداً" وهذا فرحٌ كبير لي، لأنّ أغلب المواد كانت جديدةً عليّ مثل الخرائط، والتحقيق الجنائي، والبصمات، ورفع الأدلة، والإدارة الأمنية، وحرب المدن، والتشريع الجنائي... إلخ.

انتهيت من الدورة التأهيلية العسكرية.. فبدأت أبحث عن مخرج لإكمال دراستي العليا، حاولت في جامعة الإمام، وجامعة الملك سعود، والجامعة الإسلامية في المدينة ولكن دون جدوى، ولم يكن أمامي إلا الخيار الوحيد وهو جامعة أم القرى في مكة المكرمة، وفعلاً أخذت إجازةً من عملي الجديد بإدارة العلاقات والتوجيه بوزارة الداخلية، وذهبت إلى مكة، واتجهت فوراً إلى ابن أختي النادر في خدمة الناس فهد البديوي ـ رحمه الله ـ هذا الرجل علامة فارقة في تاريخ مكة النجدي، لأنه كان يساعد هذا ويدعم ذاك، ويشجع الثالث ويسلّف الرابع.

اتّجهت إليه، فأرسلني إلى شخص كريم في مكتب مدير الجامعة اسمه عبدالرحمن السالم، ذهبت إليه فرحّب بي، وكان مدير الجامعة في ذلك الوقت معالي الدكتور راشد الراجح.. أخذ عبدالرحمن أوراقي ثم كتب عليها توصية مباركة وقال: اذهب إلى عمادة الدراسات العليا لشخص اسمه الدكتور صالح السيف وأعطه هذه الورقة.

أخذت الكتاب وبسرعة البرق ذهبت إلى حيث يستقر الدكتور السيف.. وأعطيته الكتاب.

.indd 113 20/02/2019 10:20:28

لن أطيل في هذه السطور لأنني سأتناولها بالتفصيل في الفصل القادم الذي سيرصد مرحلة الماجستير.

وفي نهاية ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م كانت نهاية العمل الوظيفي، الذي استمرّ لمدة ست سنوات وفي هذه السنوات الست تغيّرت مفاهيمي وأفكاري، وشاخت ذاكرتي، وقلت حماستي، ونسيت أخلاق الطالب وتضخمت فيّ كلمة "أستاذ" حيث كنت أسمعها على مدار أربع سنوات في التعليم، لذلك حصل لي ما يشبه غسل المخ، وانطبق عليّ بيت الشاعر الكبير أحمد الصافي النجفي حين قال:

أصبحتُ أستاذاً فزدت جهالةً

فلقد فقدتُ تواضعَ التلميذِ

لقد احتلّتني كلمة أستاذ مثلما احتلّ التلوث مدينة جدة، وما بقي بي من تواضع أخذه اللقب العسكري حيث انتقلت من كلمة "أستاذ" إلى صفة جديدة، زادتني غروراً وغطرسةً، ألا وهي "حضرة الضابط"!.

حتى لا يفهمني أحد بشكل خاطئ، مع أنني سأُفهم خطأ – أقول: لم أكن مغروراً في يوم من الأيام بالشكل الذي يؤدي إلى الكِبر والتعالي، بل كان غروراً يدعوني إلى التوقف عن تحصيل العلم أو حتى القراءة والاطلاع.

لم تدم لي دورة الغرور، فقد استيقظت سريعاً من هذا الوهم، وبدأت أراجع نفسي فأدركت أنني لست أكثر من إنسان مثله مثل ملايين البشر الذي يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، لذلك قتلت كل ذرات الكسل في داخلي، وحمّست نفسي لكي أعود طالباً يرفض كل المراتب والوظائف

.indd 114 20/02/2019 10:20:28

والألقاب والمناصب، فالعلم، والعلم وحده هو من يرفعني ويُبقي ذِكري إلى يوم يبعثون.

لذلك قررت أن أفعل المستحيل لكي أواصل دراستي العليا، متّخذاً درجة الماجستير هدفاً وقصداً.. ونعم القصد ونعم السبيل.

وأخيراً، أخذت قراري وقلت إما النصر أو الشهادة.. هكذا كما يقول المجاهدون، فعلت ذلك متوكلاً على الواحد القهار ثم دعوات أمي وعزيمة في أعماق نفسي لا تعرف اليأس لدرجة أعتقد معها أن الله – جلّ وعزّ – رفق بي كيتيم ومنحني إرادةً تتحدى اليأس واليائسين وتنتصر على البؤس والبائسين.

.indd 115 20/02/2019 10:20:28

▯▯▯▯▯▯ ▯▯ ▯▯▯▯▯▯ ▯▯▯▯ ▯▯▯▯.indd 116 20/02/2019 10:20:28 ▯

الفصل الرابع

مكّة ليس منها فكّة

ها نحن في عام ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م وقد اشتعل الأمل وأضيء الطموح علَّ وعسى أن أجد قبولاً في جامعة أم القرى لدراسة الماجستير في الأدب أو البلاغة أو النحو والصرف، أو أي قسم آخر حتى لو كان قسم جغرافيا أو تاريخ.

لقد كان هاجس مواصلة الدراسات العليا يغلب على كل شيء.. فلا أرى أمامي إلا إكمال دراستي وإلا سأعدّ نفسي شخصاً جديراً بالإهمال.

ذهبت إلى مكتب الدكتور صالح السيف، وللأمانة كان رجلاً نادراً في دعمه وقدرته الإدارية، أخذ الأوراق، وقرأها ثم قال: في أي قسم تريد أن تدرس؟ قلت في قسم اللغة العربية.. فقال: حسناً، تفضل بالجلوس وجلست في مكتبه الأنيق، وأخذ ينهي أوراقاً للمراجعين.. يساعد هذا، ويوقّع لهذا، ويوجه الثالث، ولا عجب في ذلك فقد كان وكيل عمادة الدراسات العليا، وفي يده كثيرٌ من السلطات!

.indd 117 20/02/2019 10:20:28

في البداية سأكون شجاعاً وأقول: إنني تضايقت من طول الانتظار، فالكل يدخل ثم يخرج وقد قضيتْ حاجته ما عدا أنا، شعر الدكتور السيف بتعابير وجهي المضطرب لذا التفت لي ثم قال: يا أحمد، عندما أنتهي من المراجعين سأتفرّغ لك، لأن موضوعك يحتاج إلى تركيز للبحث عن مخرج يسمح لك بالالتحاق بالماجستير!

جلست عنده حتى الساعة الثانية ظهراً، بعدها لم يعد أحد من المراجعين يأتي، فقام وأغلق الباب وبقيت هو وأنا لوحدنا في المكتب.

أخذ نفساً عميقاً ثم قال: يا أحمد، المشكلة أنّ قسم اللغة العربية يشترط على الأقل "جيّد جداً" وتقديرك مع الأسف "جيّد"، قلت له: هذا "بلاء أبوك يا عقاب"، ولو لم يكن الأمر كذلك لما أتيت إلى هنا، ولكن الأمل فيك بعد الله.. وحتى أكون واضحاً، أنا لا أريد واسطة بل أريد مخرجاً قانونياً يسمح لي بالمواصلة، لأن مسيرتي الجامعية كان فيها من الصعوبات الشيء الكثير.

أخذ الدكتور السيف يقلّب في الأوراق، وينقّب ويعيد ويجمع ويطرح ويرتب حتى وصل إلى أرقام جيّدة، وقال: هناك مخرج نظامي يقول: يقبل الطالب الحاصل على تقدير جيّد بشرط أن يكون حاصلاً على جيّد جداً في مواد التخصص المطلوب دراستها في قسم الماجستير.. لذا توغّل السيف في سلم الدراسات من السنة الأولى وحتى الرابعة، وحذف تلك التي ليست من المواد التخصصية، ويا للمفاجأة، فقد وصل التقدير إلى جيّد جداً بفارق فقط ثلاث درجات عن تقدير جيّد.

.indd 118 20/02/2019 10:20:28

فعل ذلك وكتب توصيةً وخطاباً إلى قسم اللغة العربية وسلّمه لي، حينها قبّلت رأسه بطريقة عفوية، وشكرته شكراً طويلاً استمرّ حتى خرجت من باب مكتبه!.

حين خرجت من مكتبه، كان آذان العصر يهزّ الأركان، لذا اتجهت إلى مسكني وكلي لهفة أعدّ الساعات والدقائق حتى مطلع الفجر، طلع الفجر وصلّيت ثم لبست أجمل ثيابي وذهبت إلى قسم اللغة، وكان للتوّ قد انتقل إلى مبناه الجديد في العابدية!.

كان رئيس القسم الدكتور الذي أصبح صديقاً فيما بعد سليمان العايد، قد أخذ الخطاب وأكرم مثواي، ثم حدّد لي يوماً معيّناً لإجراء اختبار القبول ثم المقابلة الشخصية... جاء يوم الاختبار، وقدمت كل ما أملك، رغم أن عهدي بالقتال والسؤال قديم، ثم ظهرت النتائج ونجحت، بعدها جاء موعد المقابلة الشخصية وتقدّمت لها وكان من يجري معي المقابلة الدكتور العزيز الأديب عبدالله باقازي والدكتور الشاعر محمد بن مريسي الحارثي، وللأمانة فقد كانا يعرفان أحمد العرفج الكاتب فرحّبا بي وقالا: سنقبلك فلا تقلق لأنّك مكسبٌ للقسم.

ومن غرائب الصدف أنني كنت في هذه المرحلة أعمل محرّراً ثقافياً في مجلة "اليمامة"، وكان في درجي مقال حاد، كتبته نقداً في مجموعة قصصية له بعنوان: مجموعاته التي صدرت هي: الموت والابتسام عام ١٤٠٤هـ، والقمر والتشريح عام ١٤٠٦هـ، والخوف والنهر عام ١٤٠٩هـ"ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ" كتبته ولم أنشره..!

.indd 119 20/02/2019 10:20:28

تُرى ماذا كان سيحدث لو نشر المقال قبل المقابلة الشخصية؟ أعتقد بالتأكيد أنني سأُقبل لأن الدكتور باقازي صاحب صدر واسع، ولكن ما موقفي مع الرجل الذي كان سبباً لقبولي في الدراسات، وهو الذي أصبح فيما بعد مشرفاً عليَّ كما سنرى في قادم الصفحات.

قُبلت في القسم طالب دراسات عليا، وبدأت الدراسة، ولكن كانت هناك مشكلةٌ كبرى تواجهني، تتمثل في الحصول على موافقة من مرجعي في العمل/ وزارة الداخلية لإكمال الدراسة، ولا بديل عن الموافقة، لأنّ الجامعة اشترطت أن أحضر هذه الموافقة ومنحوني شهراً كاملاً لإحضار هذا الخطاب.

حين بدأت العمل في إدارة العلاقات والتوجيه بالوزارة كان مديرها رجل فاضل معين لكلّ من يريد إكمال دراسته، رجلٌ اسمه: حسن بن سعيد، وهو الأخ الشقيق لعبدالرحمن بن سعيد مؤسس نادي الهلال ـ رحمه الله ـ تقدّمت إليه بخطاب الرغبة في مواصلة الدراسة والحصول على ابتعاث داخلي، فرحّب وشجّع، ثم قال: يا ولدي، أنا سأرفع الأمر لوكيل الوزارة بالتأييد، وكل ما عليك هو متابعته هناك لعلّك تحصل على الموافقة.

كان معالي الصديق إبراهيم العواجي قد تقاعد قبل خطابي بستة أشهر، ومع ذلك اتصلت به، وقال: حاضر، يا أحمد، أنت مواطن صالح وموظف مخلص وسأدعمك، وفعلاً اتصل بمن حلّ محله، وهو معالي الدكتور عبدالرحمن الجماز، الذي بدوره كتب على طلبي "لا مانع"، وهذه العبارة أعني عبارة "لا مانع" سائغة في المخاطبات الإدارية وتشعرك بأن الأصل

.indd 120 20/02/2019 10:20:28

في كل شيء عندنا هو "المنع" لذا تُكتب في كل موافقة لأي إجراء عبارة "لا مانع"..!

أخذ هذا الإجراء قرابة الشهر، وكنت حينها أتابع الأمر عبر الاتصال اليومي من مكة المكرمة حتى لا تفوتني أي محاضرة قد أندم عليها.. وأتذكر أنني في هذه المرحلة، قد جاورت أمي التي تسكن في شقة بجوار الحرم، لذا آخذها كل عصرية بكرسي متحرك وأطوف بها حول الكعبة وأتعلّق بأستارها وأدعو الله أن يسهّل لي أمر الموافقة وقد استجيب الدعاء بكرم من رب السماء.

جاء خطاب الابتعاث موجهاً لجامعة أم القرى وقد نصّ الخطاب أن تكون مدة البعثة ثلاث سنوات، يدرس فيها الطالب بقسم "العلوم العربية"، وللأمانة فقد كان هذا الابتعاث الداخلي غير مفيد مالياً لأن البدلات كلها تسقط في حالة الابتعاث.

الآن نحن في عام ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م وقد حصلت على الموافقة ولم يعد أمامي سوى التركيز على الدراسة... بحثت عن شقة ووفقت إلى واحدة في حي الهجرة "كدي" قريبةً من الحرم وغير بعيدة عن مستشفى النور، وتفرّغت للدراسة في الجامعة حيث كانت تسمى السنة الأولى في الماجستير "السنة المنهجية" إذ يدرس فيها الطالب بعمق أمهات الكتب في التخصص وأصول البحث وكيفية رسم الخطة.. إلخ.

درست السنة المنهجية ثم بلغت الاختبارات وانتهيت منها وذهبت لأخذ النتيجة، فقالوا: إنك ناجح، ولكن هناك مادة رسبت فيها وهي مادة الأدب

.indd 121 20/02/2019 10:20:28

المقارن، والتي يدّرسها أستاذ فاضل من المغرب، وقد صار صديقي فيما بعد.. إنه الدكتور حسن الوراكلي رحمه الله، وهو أستاذ بارع، ويجيد الفرنسية والإسبانية..!

بعد سماع خبر الرسوب صُعقت، فأنا محبٌ للأدب المقارن، بل للمقارنات في كل شيء.. وحين كنت هامّاً بالخروج من القسم ورأسي تملأه الدهشة والإطراق قائلاً: كيف حصل هذا؟!. ولكن السؤال والإطراق لم يدوما طويلاً، فمن جماليات الصدف أنني حين أردتُ الخروج من المبنى قابلت أستاذ المادة د. الوراكلي فقال لي: مبارك يا أحمد النجاح؟ نظرت إليه بحيرة تلون وجهي وقلت: يا دكتور هل تمزح معي، إنني مخفق، فقال: كيف هذا.. لم يرسب عندي أي طالب، قلت له: الأمر ما سمعت يا دكتور.

فقال: تعال معي لنرَ الأمر.. ذهبت معه، ثم دخل إلى قسم النتائج، وبعد ربع ساعة خرج وقال: مبارك يا أحمد.. لقد حصل خطأ غير مقصود مني في تقدير الدرجات، وحينها قفزت قفزةً تضايق منها كل من كان في القسم، ومن غير شعور، ذهبت إلى الحرم وصلّيت ركعتي الشكر ثم اتجهت إلى شقة أمي – رحمها الله – وبشّرتها بالنجاح هي وأختي العزيزة الشاعرة منى العرفج.. ففرحتا لي وحمدتا الله – جلّ وعزّ – على نعمائه التي لا تعدّ ولا تُحصى، وهكذا أنهيت السنة المنهجية بتقدير "جيّد جداً" الأمر الذي يؤهلني لتسجيل بحث الماجستير والانخراط في دهاليز البحث والقراءة.

في تلك السنة درس معي صديقي العزيز والحبيب الوفي الدكتور محمد بن عبدالله الأسمري الذي يعمل الآن – مستشاراً لوزير العمل – وقد كان

.indd 122 20/02/2019 10:20:28

أثناء فترة الدراسة خير رفيق في ذاك الطريق، كما كان معي الصديق القريب خطيب الجمعة عبدالحكيم الشبرمي والصديق الدكتور منصور القش أستاذ الأدب في جامعة طيبة، والأصدقاء حسن غارم وناصر السعيدي، اللذان لا أدري أين ذهبت بهما الأيام؟!.

في تلك المرحلة تلقّينا العلم على يد كوكبة نادرة من الأساتذة من أمثال الدكاترة: محمود فياض، ومحمد أبو موسى، ومحمد بن مريسي الحارثي، وحسن باجودة وإبراهيم الحاردلو، ومحمود زيني، وعبدالحكيم حسان، وعبدالله باقازي، وشخص آخر لم أعد أتذكر اسمه.

ولا زلت أتذكر أن أقربهم لنا وأكثرهم اختلاطاً بنا كان الرجل الرائع والأديب الماتع د. محمود فياض، ذلكم الذي يزوّدنا بلغة كأنها الموسيقا عذوبةً وانسياباً وسلاسة، وانتهينا من السنة المنهجية، وكنت في ذلك الصيف عاكفاً على اختيار موضوع رسالة الماجستير.. لذا جهّزت عدة موضوعات منها "شعر الغربة عند الشعراء – السفراء في السعودية" وكان هناك موضوع "ظاهرة البكاء عند الشعراء في السعودية" كما كان من ضمن الموضوعات ظاهرة القومية بين الشاعرين عمر أبي ريشة ونزار قباني.. وأخيراً كان هناك موضوع اسمه: ظاهر الشكوى عند المتنبي.

جمعت هذه الموضوعات وبتّ أنتظر قرار مجلس الكلية الذي يحدد المشرفين، إذ يجب أن يكون للطالب مشرف يعدّل له ويرشد ويوجّه.. في البداية وضع لي القسم مشرفاً فاضلاً اسمه الدكتور عبدالله العضيبي وهو ينحدر من أسرة نجدية مستقرة في مكة منذ أمد طويل وللأمانة فإن هذا

.indd 123 20/02/2019 10:20:28

الرجل عالمٌ في الأدب والثقافة، ويقرأ بشكل مكثّف، ولكن كيمياء التفاعل بينه وبيني لم تكن على ما يرام، حيث مكثت معه قرابة الستة أشهر، وبعدها قدّمت طلباً أرغب فيه تغيير المشرف، وكان الدكتور عبدالله العضيبي على وشك أن يحصل على سنة تفرّغ، يبتعد فيها لمدة عام كامل عن الحرم الجامعي، من هنا وجدت هذا عذراً لي في تغيير المشرف، لأنني أرغب في الإبقاء على علاقة طيبة مع هذا الرجل البحّاثة، ومن يدري قد يكون هو من سيناقشني عندما أنتهي.

تقدّمت إلى القسم وطلبت مشرفاً جديداً، أعرفه ويعرفني ألا وهو الدكتور عبدالله باقازي، فوافق مجلس الكلية على ذلك، وكان نعم القرار.

فتحت صفحةً جديدة مع المشرف الجديد.. واتّفقنا على البدايات، وكان الدكتور باقازي رائعاً ومنتجاً ومتعاوناً بحيث نتقابل أنا وهو كل شهر آخذ معه وأعطي وأصف له ما وجدت من صعوبات في البحث.. وكان في كل مرّة يجد لي مخرجاً من كل ضيق بحثي ويمدّني بكل ما يُثري.

في تلك المرحلة وبعد أن انتهيت من السنة المنهجية لم يعد بقائي في مكة له أهمية تُذكْر، لذا بقيت متنقّلاً بين بريدة والمدينة واستأجرت شقةً في الثانية وصارت هي مكتبي ومطبخ إنتاج بحثي.

تناقشت مع المشرف القدير د. باقازي حول الموضوع فاستقرّ الرأي على أن يكون البحث بعنوان: ظاهرة الشكوى عند الشاعر المتنبي، ورفعنا ذلك إلى مجلس الكلية لأخذ الموافقة.. وقد تم ذلك بكل سلاسة وانسياب،

غير أنهم طلبوا مني ورقةً من مركز الملك فيصل للبحوث تؤكّد أنّ الموضوع لم يبحث من قبل وتم ذلك أيضاً بكل يسر وسهولة.

في تلك السنة وزّعت وقتي بحيث أجعل السنة الأولى فقط لقراءة البحوث القريبة من بحثي وجميع المعلومات التي يتطلبها البحث من المصادر والمراجع، كما أنني بذلك وفّرت وقتاً كبيراً في قراءة ديوان المتنبي عدّة مرات لأستخرج منه المادة العلمية المتعلّقة بالبحث.

في هذا البحث انطلقت من فرضية وضعتها بنفسي تقول: المتنبي.. هذا الشاعر المغرور المفتون بنفسه المتغطرس الذي يقول: أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي، هل يعقل أن هذا الرجل الذي يتغنّى بمثل هذا الشعر، أن يشتكي ويبكي وينكسر؟!.

وحتى لا أطيل في هذا الأمر الأدبي، سأختصر حكايتي مع المتنبي بما وصلت إليه من نتائج تقول: نعم المتنبي شاعرٌ كبيرٌ فخور بنفسه ومغرور ومتعال، ولكن أيضاً يحترف الشكوى والبكاء والانكسار، وقد أدرك ذلك في آخر قصائده حيث قال:

ألا ليت شعري، هل أقولُ قصيدةً

فلا أشتكي فيها.. ولا أتعتّبُ!

من أجل الدراسة جلست في المدينة المنيرة سنةً كاملة، وأنهيت مسودة البحث، وكنت كل شهر أقدّم فصلاً للمشرف وهو يقرأه ويعيده إليَّ مشفوعاً بالتعديلات والملاحظات.. وبعد أن اطمأنّت نفسي، قرّرت أن أرحل إلى جُدّة

.indd 125 20/02/2019 10:20:28

– بضم الجيم – لأكون قريباً من الجامعة وقريباً أيضاً من المكتبات ووسائل الإعلام هناك.

كان ذلك في أوائل ١٤١٩/ ١٩٩٩م، حيث طاب لي المقام في جُدة "عروس البحر الأحمر سابقاً"، وفي هذه المرحلة توثّقت علاقتي مع أستاذي وصاحب الفضل الكبير عليَّ الشيخ عبدالرحمن المعمّر رئيس تحرير جريدة "الجزيرة"، الأسبق، ومالك مجلة "عالم الكتب"، الذي جعلني أكبر بسرعة، وأدخلني إلى صوالين جدة وعرّفني إلى رجالاتها الكبار وأهلها النادرين، وأدبائها الجادين.. حقاً لقد كان تعرّفي على الفيلسوف المعمّر علامة فارقة في مسيرتي الحياتية والثقافية وتأثرتُ بصفاته الحميدة مثل الشجاعة والجرأة في قول الحق والتأكد من معادن الناس قبل الاندفاع معهم، كما استفدت أيضاً من معلوماته النادرة والفاخرة التي لا تجدها إلا عنده.. وتعلّمت أيضاً من شيخي المعمّر طريقة السخرية والكتابة الساخرة الهادفة التي تقول ولا تقول وتوضح ولا تجرح، ولن أطيل في مناقب هذا الرجل لأنني سأذكرها في كتاب آخر.

استمرّ عملي مع المشرف الفاضل د. باقازي شهوراً وشهوراً حتى وصلت إلى خط النهاية، وأعطاني إذناً بطبع الرسالة وتقديمها للمناقشة وتم ذلك بكل هدوء وسلاسة، وتقدّمت للقسم بهذا الطلب ووافقوا وسلّمت البحث وانتهى الأمر الذي يتنازع فيه المشرف والباحث.

قدمت الرسالة، وبدأنا نفكر بأمر المناقشة، لكن الأمر برمته في يد القسم الذي يرأسه الدكتور العزيز صالح بدوي يحفظه الله، ووكيله الدكتور

.indd 126 20/02/2019 10:20:29

حامد الربيعي رئيس نادي مكة المكرمة الثقافي ، وللأمانة فقد كان حضور الربيعي في قضايا طلاب الدراسات العليا أكثر من حضور الرئيس لأن الرئيس متفرغ لقضايا أهم وأكبر.

كانت الأجـواء متكهربة ومشحونة فـي القسم، فـهناك صـراعٌ بين الصحويين واللا صحويين وهناك التنافس "الحضري والبدوي" وهناك تحاسد الأقران، المعروف في التراث العربي، كل هذا ألقى بظلاله على مسيرة مناقشتي بدءاً من اختيار المناقشة وحتى نهاية المناقشة وإليكم الحكاية:

اختار وكيل القسم الدكتور حامد الربيعي مناقشين أحدهما الدكتور عبدالله العطاس والآخر سأحتفظ باسمه إذ ليس من مهمتي هنا الإساءة لأحد، المناقش الآخر كان صديقاً ومقرباً لوكيل القسم، لذا فرضه من باب الفرض الناعم علينا حيث كنا ـ الدكتور عبدالله باقازي وأنا ـ متحفّظين كثيراً على مشاركته في المناقشة.. لكن الوكيل أصرّ، لذا لم نملك وقتها إلا الرضوخ، وحُدِّد موعد المناقشة، وحُشر الناس ضحى لمتابعتها.

كان لي ما يشبه الحاسة السادسة بأنّ شيئاً ما سيحدث في قاعة المناقشة، لذا لم أفرح في ذلكم اليوم، ولم أوزّع رقاع الدعوة كما يفعل نظرائي وأصدقائي.. بل ذهبت إلى قاعة المناقشة التي لم يعلم عنها إلا صديقي وزميلي في تلك الدراسة د. محمد الأسمري، وابن أختي يوسف البديوي، وصديقي الذي كان خير مساعد لي أبو العطاء الشنقيطي.

.indd 127 20/02/2019 10:20:29

بدأت المناقشة الساعة العاشرة على ما أذكر "ويا دوب" – كما يقول الحجازيون – افتتحنا الجلسة، وبدأ المناقش الآخر يسألني في فقرة من البحث، وأنا أجيب، وحين انتهت إجابتي؛ أكمل المشرف د. باقازي وهذا من صلاحياته.. حينها قال المناقش الآخر: أرجوك يا دكتور عبدالله لا تتدخل.. فقال المشرف: لا بد أن أتدخل هذا طالب من طلابي الذين أشرف عليهم، فقال الآخر: لو تدخلت مرةً أخرى سأترك القاعة وأخرج.. فقال المشرف: أنت حر.. في هذه اللحظة حاولنا نصلح الأمور، ولكن الدكتور الآخر خرج بسرعة.

طبعاً، في هذه الساعة كان الدكتور حامد الربيعي أكثر الناس حزناً وحيرة.. ولا يغلبه في ذلك إلا أنا الذي ضِعْتُ بين الأرجل، وصرت ضحيةً لخلافات هذه الكلية.

وحتى أكون منصفاً ، أذكر بأن تلك المعركة اللفظية حدثت قبل حضور الدكتور الربيعي الذي جاء لاحقاً على أمل أن تكون المناقشة قد انتصف وقتُها.. ولكن حين دخل علينا رآنا ننوح ونتحسر، فقال: يا إلهي، كيف حدث هذا؟ قلنا له: الأمر ما ترى..!

في هذا الوقت، أخرج الدكتور الربيعي جواله، واتصل على المناقش الآخر، ولكن يا للخيبة، فقد كان الجوال مغلقاً. بعدها دخلنا في دائرة الحيرة، وانقسمنا إلى مجموعات، فالدكتوران المشرف باقازي والمناقش العطّاس انصرفا دون أن يتدخلا ولم يحركا ساكناً، أما أنا فقد اتجهت إلى الدكتور حامد الربيعي وكلي حيرة وقلق، طالباً منه أن يصلح الوضع ويعيد المناقش

.indd 128 20/02/2019 10:20:29

الآخر لعلّ الأمور تنتهي على خير.. أخذ الدكتور الربيعي يربت على كتفي ويقول: لا تقلق، سنعدّل الوضع، ولكن دعني أجد المناقش الآخر، وحتى تتأكدوا من صحة كلامي، سآخذ معي فلان الفلاني "أظنّهُ مريسي!" وهذا الشخص الذي سيذهب مع الربيعي من المستحيل أن يرد له المناقش الآخر أي طلب حتى لو قصده "برقبة" وسنذهب إليه على شكل "طلْبة رجال"، كما يقول الدكتور الربيعي!

بدأنا نبحث عن المناقش الآخر، الربيعي من جهة، والأسمري وأنا والشنقيطي من جهة أخرى، ذهبنا إلى كل الأماكن التي من المحتمل أن يكون فيها من مكتبة الجامعة إلى الكلية إلى منزله وحتى الأماكن التي يرتادها في مكة وضواحيها مثل المقاهي وغيرها، بحثنا حتى أذان العصر وكل ذلك دون جدوى.. وحتى أكون منصفاً، لن أقول: إن المناقش الآخر كان مخطئاً أو مشرفي العزيز كان على صواب.. إنما هي أرواح لم تتآلف ومن الخطأ أن تجمعها في قاعة واحدة لتأليف قلبيهما اللذين لم يتآلفا خلال ربع قرن.

المناقش الآخر، رجلٌ قدير ومهتم بالأدب والشعر والتراث، ولم أرَ منه أيّ شر أو سوء، بل كان على خلاف مع مشرفي وهذا الخلاف قديم، بل قديم جداً، وقد صار العرفج الأرض الخصبة لتصفية الحسابات بينهما.

في مساء يوم المناقشة، عندما حلّ الظلام أظلم أملي، وأُحبط طموحي، وتلاشت قدرتي على الصبر، لذا تهورت واتصلت على منزل المناقش الآخر، ولا زلت أتذكر مكان المكالمة، فقد كنت في ثلوثية الصديق النبيل

.indd 129 20/02/2019 10:20:29

أبو الشيماء محمد سعيد طيب – حين كانت تُعقد الثلوثية يوم الثلاثاء وليس كما هي الآن "يوم الجمعة" – حينها دخلت في غرفة بجوار صالونه، وتكلّمت مع المناقش، وشرحت له وضعي، فرحّب بي، واعتذر عما حدث، فقلت له: يا رجل أنا قاصدك، فقال: حاضر، سأعيد المناقشة بعد أسبوعين، بشرط أن يحضر مشرفك من غير أن يتحدث، فقلت: سأطلب منه ذلك، وعلى هذا اتفقنا.

في اليوم التالي، اتصلت على المشرف القدير د. عبدالله باقازي وشرحت له الوضع فقال: مستحيل مستحيل مستحيل أن أحضر من غير مشاركة، أنت طالب عندي ومن حقي أن أدافع عنك، فقلت له: يا دكتوري العزيز صدقني سأعرف كيف أدافع عن نفسي، وإذا لمست بي قصوراً فمرحباً بدفاعك.

سرى الاتفاق على هذا المنوال، وفعلاً جاء اليوم الموعود وجاء المناقشان والشهود.. وبدأت المناقشة وكنتُ حينها في غاية الخوف، مرّةً أفكر بالإجابة على سؤال المناقش، ومرّةً أخرى أفكر كيف أجنّب مشرفي التدخل والمشاركة حتى لا تخرب الطبخة وتعود المسرحية الأولى!. استمرّت المناقشة لمدة ساعتين، وكان أدائي متواضعاً نظراً للمخاوف التي تجتاح عقلي، في حال حدوث أي ردة فعل تُخرج الأمور عن مسارها الذي لا نتمناه "الدكتور حامد الربيعي وأنا".

أخيراً، انتهت المناقشة، وأخذ المناقشون طريقهم إلى غرفة خاصة ليقرّروا ماذا يمنحونني، وما هي إلا عشر دقائق، ثم جاء البشير المنادي،

.indd 130 20/02/2019 10:20:29

وأعلن النتيجة بحصولي على الماجستير في الأدب العربي بتقدير جيّد جداً، هذه النتيجة عامة، أما الخاصة، فهي قائمة طويلة من التعديلات تشمل حذف فصل كامل، وغير ذلك مما يعرفه أي طالب دراسات عليا.

لم تكن المناقشة نهاية المطاف للحصول على وثيقة التخرّج بل لا بدّ من حفظ أربعة أجزاء من القرآن الكريم، كمتطلّب ومقرّر على أي طالب ماجستير في جامعة أم القرى بغض النظر عن قسمه وكليته.. هذا كما يُقال "موس على كل الرؤوس".

الحقيقة أنني لم أقتنع بهذا الإلزام لذا سألت عن العقوبة التي ستدركني لو لم أحفظ، فقالوا: لن تحصل على وثيقة التخرّج، قلت: حسناً، أنا رجلٌ مهمل ووجود الوثيقة عندي قد يعرّضها للضياع أو التلف، لذا اجعلوها عندكم في الحفظ والصون.

وللأمانة فإنّ رصيدي من حفظ القرآن الكريم كبير، فأنا تقريباً حافظ لنصف القرآن خلال مراحل دراستي الدينية المختلفة، ولكن رفضي للتسميع، كان رفضاً لهذا التطبيق الذي نقلته جامعة أم القرى بشكل "عشوائي" من جامعة الأزهر، والدليل على ذلك أن جامعة أم القرى غيّرت هذا الشرط، بعد ذهاب رئيسها العجيب الدكتور راشد الراجح.

هنا كان لزاماً عليَّ أن أحضر لمرجعي "وزارة الداخلية" ما يفيد حصولي على الدرجة، لذا ذهبت إلى الدكتور الخلوق رئيس القسم صالح بدوي وطلبت منه إفادة وليس وثيقة تفيد بأنني أنهيت الماجستير، وفعلاً

.indd 131 20/02/2019 10:20:29

قام بذلك وأكثر، حيث أعطاني توصيةً باللغة الإنجليزية لأنني قلت له: إنني سأكمل الدكتوراه في إحدى الجامعات الأمريكية أو البريطانية.

لقد حصلت بموجب هذه الإفادة على كل شيء، وترجمتها وختمتها، وتركت الوثيقة لهم، وما زالت شهادتي الماجستيرية تقبع في مبنى الجامعة العزيزة حتى يوم كتابة هذه السطور.

132.indd 20/02/2019 10:20:29

الفصل الخامس

الدكتوراه.. من مدينة إلى مدينة ويا عقل لا تتعب

ها نحن في عام ٢٠٠٠م أو لنقل ١٤٢٠هـ، تخرّجت في هذه السنة من جامعة أم القرى وحصلت على درجة الماجستير بتقدير "جيّد جداً"، وما زالت وثيقة التخرج عندهم، لأنني رفضتُ تسميع أجزاء من القرآن الكريم، ولقد هممت بالاستجابة لطلبهم، ولكن كل ما أريده من وثائق حصلت عليه، لذا لتبقَ الوثيقة في الجامعة، وهذا أحفظ وآمن لها.

وهنا لا بد من القول: إنّ كل مراحل دراستي لم ولن أنساها، لأنها ارتبطت بنكبات عالمية مشهورة، فحين تخرّجت من الابتدائية كانت سنة التخرج هي نفسها سنة اقتحام جهيمان العتيبي للحرم ١٤٠٠هـ، وسنة تخرّجي من الجامعة كان اجتياح القوات العراقية للكويت ١٩٩٠م، وحين انتهيت من الماجستير كانت أحداث سبتمبر في نفس سنة التخرّج، لذا ألقت هذه الحادثة الأخيرة بظلالها على مسيرتي الدراسية، ولك أن تتخيّل أنّ مشاريع الدولة كلها تعطلت في تلك السنة، وأصبح البلد كله مهددًا من الداخل بالإرهاب، ومن الخارج بالإساءة لسياسة المملكة واتهامها بدعم

الإرهاب وتجهيز المحاضن له.. وحين انتهيت من الدكتوراه سقط نظام حسني مبارك في مصر!

لذا رجعت بعد تخرجي من الماجستير إلى العمل الحكومي، وكانت أيامًا عصيبة ومتعبة لارتباطها بالإعلام الذي لا ينام، ففي كل ساعة حدث وفي كل لحظة خبر.. وعلينا متابعة كل هذه المخرجات الإعلامية... ولن أطيل في الحديث عن العمل، لأنه سيكون مطروحاً بتفصيل كبير في كتاب مستقل اسمه: "النكرة والمعرّف من سيرة أحمد العرفج الموظف"، لذلك ليكن لكل حادث حديث.

مكثت من عام ٢٠٠١م إلى ٢٠٠٤م في العمل، وفي الوقت نفسه أبحث عن مخرج لإكمال دراستي.. راسلت تقريباً كل الجامعات التي لديها أقسام إعلام في بريطانيا وأمريكا، لدرجة أن ابن عمي معالي الدكتور خالد بن صالح السلطان، مدير جامعة الملك فهد "الحالي"، أخذ مني الأوراق وكان حينها وكيل وزارة التعليم العالي، أخذها وسلّمها لأحد مديري الجامعات الأمريكية.. ولكن كل هذه المحاولات كانت تتجه مباشرةً إلى سلة الفشل.

في هذه المرحلة بذلت كل الجهد، سنة خلف سنة، حتى وصلت إلى مـرادي، حيث ساعدني الرجل الصديق المعطاء د. سعود بن صالح المصيبيح، وأرسل خطاباً إلى الصديق الأديب أبي عبدالعزيز عبدالله الناصر عضو مجلس الشورى حالياً، وكان حينها ملحقاً ثقافياً في بريطانيا وشمال إيرلندا، وفعلاً بذل الأستاذ الناصر جهداً كبيراً حتى تحصّل لي على

134 .indd 20/02/2019 10:20:29

قبول مشروط من جامعة كاردف بشرط أن أجتاز اختبارات اللغة الإنجليزية ولهذا الشرط قصة طويلة سأرويها في قادم الصفحات.

جاء القبول، وبدأت أرتب أوراقي للحصول على بعثة في أواخر عام ٢٠٠٣م، وكان أمامي سلسلة من الطلبات التي يجب أن أكملها لكي يصدر قرار ابتعاثي.. ولوجه الحقيقة أقول: كان الابتعاث في ذلك الوقت عسيراً، وليس مثل الآن حيث فُتح الباب على دفتيه لكل من هب ودب..!

وأول هذه الطلبات: القبول، والحمد لله قد حصلت عليه بفضل الرجلين الكريمين الصديقين د. سعود المصيبيح، والأديب عبدالله الناصر. وكان ثانيها: الحصول على شهادة تفيد أنني حضرت دورة المبتعثين التي تقيمها جامعة الإمام، وقد التحقت بها، وللأمانة فهي دورة لا تعدو أن تكون إضاعة للوقت، ويكفي أن بعض من يحاضرون فيها لم يدرسوا يوماً في الخارج، بل هي دورة مجاملات وانتدابات وتنفيع، لمن يراد تنفيعه، وأظنها الآن ألغيت، لأن ضررها أكثر من نفعها.

وثالث الطلبات، موافقة المرجع، وهنا لا بد أن أشكر رجلين دعما الخطاب حتى وصل لمنطقة الصدور، وهما الصديق الدكتور أبو خالد سعد الجبري، الذي تعامل معي كأخ صغير له وشجعني وزكّاني أمام من أحتاج التزكية عنده، والثاني الدكتور سعود المصيبيح الذي كان يحب الخير لي ولغيري، وقد تحمّسا لابتعاثي، وقدم كلاهما ما يستطيع لكي يخرج قرار إكمال دراستي في الخارج إلى حيّز التنفيذ!.

.indd 135 20/02/2019 10:20:29

رابع هذه القرارات اجتياز اختبار اللغة الإنجليزية، وهنا كانت الصعوبة، لأنني لم أدرس في حياتي أي لغة من الممكن التعويل عليها، كنا ندرس في المعاهد العلمية حصتين في الأسبوع، ليس أكثر من "ذر الرماد على العيون" حتى لا يُقال إن المعاهد ليس فيها إنجليزي، كما أن المناهج المقررة في الإنجليزية حينذاك مصممة ليكون الطالب "داعية"، فهي تدور حول الأركان الخمسة وبعض الجمل التراثية، لذا، لا أبالغ إذا قلت إنني تخرجت من المعهد وأنا لا أعرف الفرق بين الحروف، بل كنا ننجح بالبركة، وكل الأسئلة تأتي على شكل اختيارات، وإكمال الفراغ لذلك أعمل قرعة ودائماً "تمشي معي صح"، حتى أنهيت الثانوية العامة، وللأمانة فإن الفتاوى المصاحبة لتدريس لغة الكفار، ألقت بظلالها على حماسة المدرسين، من هنا تجد أن مادة الإنجليزي ينظر إليها بنظرة إهمال وبرود أو بالأصح احتقار.

هذا ما يخص المرحلة الثانوية أما ما يخص مرحلتي الجامعة والماجستير "فلله الحمد" لم نُكلَّف بدراسة اللغة، بل لم تكن مدرجة ضمن المنهج الدراسي إطلاقاً.

كل هذا الإهمال للغة الإنجليزية، جعل الفاتورة التي يجب عليّ دفعها مرتفعة جداً، وما زلت أعاني منها إلى ساعة كتابة هذه السطور.

طُلِبَ مني أن أذهب إلى معهد الإدارة لإجراء اختبار "تحديد المستوى"، وذهبت، وهنا اختبرني على نظام "التوفل" رجل بريطاني من أصل إفريقي.. وبعد أيام جاءت النتيجة إلى مرجعي، وكانت في "أسفل السافلين"، الأمر

.indd 136 20/02/2019 10:20:29

الذي يتطلب مني الالتحاق بدورة في معهد الإدارة لدراسة اللغة لمدة سنة، وبعدها يتحدد الابتعاث من عدمه بناءً على نتيجة الامتحان النهائية.

هذه الفكرة قتلت طموحي، إذ ليس لديّ القدرة أو حتى الرغبة في الدخول في تجارب قد تنجح وقد تخسر، خاصة وأنني بدأت أقترب من سن الأربعين أو لنقل صرت في منتصف الثلاثين.

كان نجم هذه المرحلة الدكتور الصديق سعد الجبري الذي أقنع المسؤولين بأن دراستي للغة في بريطانيا أجدى وأنفع كثيراً من دراستي لها في معهد الإدارة، وبالفعل كان هذا القرار مخرجاً جديداً لأمر عانيت منه وكاد أن ينهي طموحاتي الدراسية.

عندما انتهيت من هذه العقبة، لم يبقَ لي إلا عقبة أخيرة تعدّ هي الأهم، وأعني بها موافقة صاحب الصلاحية، وللحصول على هذه الموافقة ولا بد من سرد الحكاية من بدايتها.

* * * *

كنت أكتب زاوية أسبوعية في ملحق الأربعاء التابع لجريدة "المدينة"، وقبل حرب "تحرير العراق"، تلك الحرب التي شنتها أمريكا على نظام صدام، كنت قد أرسلت إلى الصديق العزيز فهد الشريف المشرف على الملحق أربعة مقالات متنوعة، و"يا لجماليات الصدف" فقد نشر لي واحداً من الأربعة بمحض الصدفة وكان بعنوان: "وجه أمريكا المشرق" كنت في المقال أمتدح أمريكا وأعدد دورها الإصلاحي في العالم، وأبشر بقرب

indd.□□□□ □□□□ □□□□□□ □□ □□□□□□ 137 20/02/2019 10:20:29

تحريرها للعراق من نظام الرئيس السابق صدام حسين.. نشر المقال، بالصدفة المحضة، الساعة الرابعة صباحاً، وبعدها بساعة بدأت عمليات التحرير في اليوم نفسه، ولن أطيل في هذا الحدث وتبعاته الإعلامية لأنه سيكون في كتاب مستقل في مستقبل الأيام بعنوان: "المتفوق والمخفق في الكتابة عن وجه أمريكا المشرق".

بعد ذلك انهالت الردود والإرجافات والنقولات التي صاحبت هذا المقال، حيث كانت الردود كثيرة ولن أبالغ إذا قلت إنها من الممكن أن ترتقي لتكون مادة لكتاب مستقل، وهذا ما في البال عمله بعد الانتهاء من هذه السيرة..!

ما يهمني هنا هو القدر الجميل الذي جعل ذاك المقال يتوافق مع يوم التحرير، هذا التوافق منحني فرصة "ذهبية" ينطبق عليها المثال القائل: "رُبَّ ضارة نافعة".

لقد أثار المقال غيرة الكثيرين، ففي حين كانت وسائل الإعلام وآلات التصوير ومشاهد الدم والقتل الناتج عن حرب التحرير تثير الناس وتجرح مشاعرهم، يخرج كاتب سعودي يتغزّل بهذا التحرير الذي يعدّونه احتلالاً بغيضاً، لذا انهالت الردود على الصحيفة وطال الأمر وتشعّب، حتى وصل الأمر بأحدهم "سامحه الله" وهو صحافي قديم وزميل غير صميم لن أذكر اسمه إذ لا فائدة من ذلك.. وصل به الأمر إلى أن كتب إلى أعلى الجهات في الدولة، معتمداً على ما جاء في المقال من حب لأمريكا، ومتكئاً على التوافق بين النشر وتوقيت بدء التحرير، لدرجة أنه اتهمني بالعمالة لصالح

.indd 138 20/02/2019 10:20:29

المخابرات الأمريكية C.I.A.، وهذا الاتهام جعل فأر الشك يلعب في عبّ كل من يقرأ تلك الكتابة أو لنقل "التحريض".

ذلك التحريض، بدأ يتنقل من جهة إلى أخرى ومن إدارة إلى إدارة، حتى وصل الأمر إلى صاحب السمو الملكي الأمير الخلوق محمد بن نايف مساعد وزير الداخلية – حينذاك – الذي كان حكيماً ومسؤولاً واعياً يدرك حقيقة قول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ"، لذا أحال الأمر إلى جهة الاختصاص في المجلس العسكري، للتحقيق معي والوقوف على صحة هذه المزاعم حول علاقتي ككاتب بالمخابرات الأمريكية.

امتثلت للتحقيق وكان المحققان ضابطين من ذوي الرتب العالية، وكانا يمتازان بالفضل والأدب وحسن الظن، وبدأ يكتبان السؤال تلو السؤال، وأنا أجيب الجواب تلو الجواب، حتى ملأنا من الورق قرابة العشرين صفحة... واستمر التحقيق حوالي ثلاث ساعات، بعدها خرجت من عندهم وأنا مرتاح الخاطر، مع أنهما لم يقررا شيئاً، ولكن مصدر الراحة كان مبعثه أنني شرحت الأمر وملابساته بكل وضوح.

في تلك الأيام أعني – أيام محنة التحريض والاتهام – كنت أعيش حالة قلق نادرة، ومرحلة معاناة قارعة، ولكن منذ الصغر تعلمت أن أتحمل المعاناة والقلق من غير أن أشتكي، بل إن أقرب الأحباب والأصحاب لم يشعروا بشيء مما أعانيه، لأنني – ولله الحمد – أستطيع التمثيل وتغيير وجهي لدرجة يشعر معها جليسي أن كل الأمور على ما يرام.

.indd 139 20/02/2019 10:20:29

في تلك الأيام، أتذكر أنني كنت أعمل ليلاً في مبنى الوزارة في الرياض، وأخذتني المودة إلى زيارة أحد المسؤولين عندنا ألا وهو الصديق العزيز الدكتور سعد الجبري، فوجدته على علم تام بموضوعي، وقد عرض – كعادته – المساعدة فقلت له: كيف السبيل إلى ذلك يا سعادة الصديق العزيز والأخ الأكبر؟.. فقال: الصورة عند سمو الأمير محمد بن نايف غير واضحة عنك، لماذا لا تكتب لي ما تريد أن تقوله لسموه، وأنا أعدك بأن أسلّمها ليده ليقرأها بكل هدوء.. وفعلاً حصل ذلك، وبعد قراءة الرسالة علمت أن انطباع الأمير – حفظه الله – كان جيّداً، كما أن لجنة التحقيق أثبتت براءتي كبراءة الذئب من دم يوسف عليه السلام.

الآن أقول.. للأمانة لم يكن خوفي نابعاً من شعوري بأنني ارتكبت ذنباً أو اقترفت جُرماً، بل كل الخوف أن هذه الشوشرة والتحريض والاتهام قد تؤثر في مسار صدور قرار ابتعاثي الذي صار كل أملي في الحياة الدنيا.

أكثر من ذلك كان خوفي أن يُطلب مني أن أترك الكتابة وأتوقف، ولو قالوا ذلك لامتثلت، ولكن هذا الطلب سيذبح موهبتي من الوريد إلى الوريد.

* * * *

حين وصل "كتاب" – وليس خطاب – طلب ابتعاثي إلى سمو مساعد وزير الداخلية كتب عليه، يبلغ العرفج لمقابلتنا يوم السبت أو الأحد.

كنتُ حينها أعمل مديراً لمكتب مدير عام العلاقات والتوجيه إضافة إلى كوني نائب رئيس تحرير مجلة "الأمن"، ورئيس تحرير "رسالة الداخلية"

.indd 140 20/02/2019 10:20:29

وكلتاهما تصدران عن الإدارة التي أعمل فيها، تركت كل عمل في يدي وبدأت أعد العدة للقاء الأمير الذي طلبني وكان الخوف والارتباك والحيرة يستعمرون تفكيري منذ أن وصلني طلب سموه، بدأت أسأل نفسي: ترى ماذا يريد سموه؟ وكيف أجيب لو سألني عن هذه النقطة أو تلك؟ كان الأمير قريباً من كل العاملين حوله وطاقم مكتبه وأنا واحد منهم، ولكني كنت أشفق على وقت سموه من كثرة الأعمال التي يضطلع بها، لذا لم يحدث أن قابلته أو سلّمت عليه، بل كان يحيل إلينا المعاملات الإعلامية والثقافية وكانت الإدارة تبذل كل جهدها لإنجاز أي معاملة تصل من سموه.. واعتبرتُ هذا التواصل والتفاعل عبر المعاملات خير سفير لي عند سموه.. إلخ.

جاء السبت، وحان الموعد الأول وليس الثاني، وبعد الظهيرة التقيت بسموه في مكتبه العامر، وجلست معه أكثر من ساعة، ودار نقاش طويل، وقد بُهرت بأدب سموه ودقة الاستماع عنده، ونظراته التي تشع ذكاءً وأدباً... دار نقاش طويل ليس من المروءة أن أرويه، لأنه كان حديثاً يمتاز بالحميمية والشفافية.. بعدها خرجت من اللقاء بأفضل الأشياء، ولعل أهمها اقترابي من سموه، ثم التأكد من أن الأمير لم يعطِ أذناً صاغية لمن حاول التشكيك في وطنيتي وانتمائي، لذا قال سموه: هل تريد أن تذهب لإكمال دراستك؟ فقلت له: نعم يا سمو الأمير.. فقال: "أبشر بالخير".

لم يزد على ذلك.. وما هي إلا أيام حتى جاءت الموافقة وصدر قرار ابتعاثي إلى بريطانيا لمدة أربع سنوات للحصول على درجة الدكتوراه في الصحافة من جامعة كاردف.

141.indd 20/02/2019 10:20:29

في ذلك الوقت شكرت الأمير شكراً كثيراً، كما شكرت كل من أسهم في صدور هذا القرار وعلى رأسهم الدكتور سعد الجبري ود. سعود المصيبيح وبقية زملائي في الإدارة الذين أقاموا لي حفل توديع مؤثر في الوزارة، حضره أعز الأصدقاء من أمثال الأستاذ أو لأقُل الفيلسوف عبدالرحمن المعمر، والرفيق أبو العطاء الشنقيطي، والصديق محمد التونسي، وبقية الزملاء في الإدارة العامة للعلاقات والتوجيه.

صدر القرار في ٥ مايو ٢٠٠٤م، ومكثت شهراً أرتب أوضاع الفيزا والحقائب ومتطلبات الدراسة، وحزمت حقائبي وصدرت تذكرة لي إلى لندن، وذهبت من جدة على الرحلة التي تقلع الثانية ليلاً، وودعت الكثير من الأصدقاء بالهاتف، ولكن هناك أصحاباً أوفياء أصروا أن يحضروا إلى المطار والصعود إلى سلم الطائرة، كما يقول المطرب طلال مداح ـ رحمه الله ـ ولا زلت أذكرهم، إنهم: الرفيق أبو العطاء الشنقيطي، والصديق الكاتب أحمد عدنان، والصديق المذيع المعروف علي العلياني، ومحمد المري.

سافرت إلى لندن وتركت جدة والسعودية في ظروف صعبة تتعلّق بوالدتي رحمها الله ومتاعب صحية لبعض أفراد الأسرة وغير ذلك، كما أنني تآلفت مع الراحة والخمول، حيث كان لدي سيارة مع سائق وأعيش في شقة كبيرة وغير ذلك من الرفاهية العالية التي ستتحول بين عشية وضحاها إلى سراب.

ذهبت إلى لندن ومعي ثلاث حقائب كبيرة وداخل لساني يوجد لغة ضعيفة تضر أكثر مما تنفع، لأنها ليست لغة عاجزة فيحضروا لي مترجماً، وليست

.indd 142 20/02/2019 10:20:29

مستقيمة حتى توصلني إلى ما أريد... وصلت لندن وأنا لا أعرف فيها إلا "شاباً وفياً" اسمه خليل الصبحي تعرفت عليه من خلال اللعب بجوار سور الحوامل في مدينة جدة... وأعرف أيضاً الصديق الأمير بدر بن سعود الذي كان يدرس الماجستير.

اتصلت بخليل لأن الأمير مشغول جداً ليستقبلني وقد فعل، وجدته في انتظاري في مطار هيثرو سلّمت عليه وحمل معي حقائبي وذهبنا لتناول الإفطار، كانت لندن في ذلك الصباح من مايو باردة ممطرة، وأنا متعب وأحمل معي حقائبي وسأهمّ بالاتجاه إلى المدينة التي سأبدأ دراسة اللغة فيها.

قضيت مع الصديق خليل وقتاً جميلاً، بعد أن وضعت حقائبي في محل أمانات في محطة البيكاديلي، وأخذنا خليل وأنا نذرع لندن تمشية وسياحة، حتى اقترب العصر، وكان لزاماً عليّ أن أعود للمحطة بعد أن ساعدني في شراء تذكرة حافلة تتجه إلى مدينة رامس قيت حيث المعهد الذي سأدرس فيه ثلاثة أشهر قبل الالتحاق في برنامج اللغة الذي تقدمه جامعة كاردف لطلابها.

ودعت خليل ثم ركبت الحافلة، كان الطريق أخضر في أخضر عبر ممرات إقليم كنت، هذا الإقليم الذي يتربع على قمة الريف الإنجليزي... لم أكن أعرف عن كنت إلا ما كنت أقرأه في دواوين الشاعر نزار قباني حين وصف هذا الريف في أحد كتبه، كان كل شيء جديدًا عليَّ، في الطريق كانت عيناي تقرآن اللوحات بصعوبة لعلي أصطاد كلمة رامس قيت لأنزل

143 .indd 20/02/2019 10:20:29

من الحافلة، وفعلاً بعد ساعتين وصلت الحافلة، ونزلت، وجلست في المحطة متحنطاً كأني تمثال وبجواره ثلاث حقائب، أحمل حقائبي معي، لقد كانت حقائب كثيرة وكأنها عفش مطلقة لا تنوي الرجوع إلى بيت زوجها.

كانت الملحقية قد اختارت لي هذا المعهد، وطلبت منهم في الملحقية البحث لي عن عائلة، حتى أخالطهم وأدفع بلغتي "العرجاء" إلى الأمام. لذلك أخرجت عنوان العائلة ودفعت به إلى صاحب التاكسي الذي أوصلني إلى منزل السيد باتريك!

كان وصولي في أول المساء، قرعت الجرس فتح لي الباب رجل نحيل طويل، قابلني بحرارة تعلوها المجاملة، وقال: مرحباً، وأخذ يساعدني في حمل الحقائب، عبر درج ضيق يصعب على "سمين" مثلي العبور من خلاله.. حملنا الحقائب، ووضعناها في الدور الثاني.. وقال: هذه غرفتك، متى شعرت بالراحة، أرجو النزول إلى غرفة الطعام حتى نتحدث، كان يتحدث بشكل واضح، ولكنه سريع الكلام ما جعلني أفهم كلمة وأتجاوز عشراً، لذلك بدأ يشرح لي عن طريق لغة الإشارة، وهكذا بدأ يأخذني وكأنه يأكل عنباً "حبة حبة" على لغتي حبة حبة ـ كما تقول الأغنية ـ مرة بالإشارة ومرة بالقاموس ومرة ثالثة بالكتابة وهكذا مضت الليلة.

في ذلك المساء أعطاني باتريك قائمة من الأنظمة التي يجب عليَّ أن ألتزم بها، ولا زلتُ أذكر منها عدم الاستحمام بعد الساعة الثامنة مساءً، ووجوب ارتداء الملابس المعروفة حال الجلوس في البيت، وضرورة خفض صوت التلفاز، وأهمية التقيّد بالوقت... إلخ، وبحكم أنهم ملتزمون بوجبتي الإفطار

144 .indd 20/02/2019 10:20:29

والعشاء، فيجب عليّ أن أخبرهم مقدماً إذا كنت سأتغيّب عن أي وجبة، لأن كل شيء في المطبخ يُطبخ بمقدار معلوم.

كان باتريك رجلاً مهذباً مثقفاً، يعيش وحيداً طوال الأيام ما عدا أيام نهاية الأسبوع حيث تأتي زوجته السيدة إيفيان، وهي سيدة في منتصف الأربعين إنجليزية صارمة لا تدري أهي رجل أم امرأة من "دفاشتها".. تعشق اللون الأسود لذا لا تلبس غيره طوال زيارتها لنا، وتحب أكل الجبن بشكل نهم، وقد رأتني مرة لم أُكمل قطعة الجبن الخاصة بي فقالت بكل وقاحة: "هل تسمح بأخذ جبنتك"؟! ونظراً لخجلي الشديد فقد قلت: نعم! مع أن نفسي كانت تشتهي تلك الجبنة، ولا زلت أتذكر أننا ذات مساء كنا نتناول العشاء معًا وحين انتهيت من طعامي وضعت الشوكة والملعقة كيفما اتفق، فقالت: يا أحمد، أظن أنك ستصبح وزيراً في بلدك في يوم "ما" لذا تعلّم "الإيتيكيت" من الآن.. ومن "الإيتيكيت" أنك إذا انتهيت من الأكل فضع الشوكة بجوار الملعقة في منتصف الصحن، بحيث رأس الملعقة والشوكة في الأمـام... وهكذا حتى يفهم "النادل" أنك انتهيت وشبعت. ما علينا، ولندع الخلق للخالق!

أما زوج هذه السيدة فهو الصديق باتريك وهو رجل فنان يرسم لوحات ويبيعها في الصيف، ومن الغريب أنه كان في غرفتي لوحة من لوحاته، كبيرة الشكل، تقريباً متر في مترين. عليها رسمة ملامح رجل، ولكن الملامح غير واضحة ولا تعرف حدودها ولا معالمها، وكنت كل ليلة أتأمل هذه الصورة، وفي مساء بهي عامر بالنشوة من المساءات سألته قائلاً: صورة من هذه يا

.indd 145 20/02/2019 10:20:29

باتريك؟ فقال: إنها صورة الله جل وعز. فقلت له: كيف عرفت ذلك؟ فقال: إنني أحب الله وأتخيّله وأعتقد أن شكل وجهه هكذا! فقلتُ: أعوذ بالله من غضب الله، بعدها تركت الحوار معه لأنني غير مؤهل، لغوياً للنقاش، كما أن الرجل لديه قناعة كبيرة بذلك ومن إضاعة الوقت محاورته في هذا الصدد.

بدأت أنظر إلى الصورة ويوماً بعد يوم، صرتُ أرتاب من تلك اللوحة، لذا طلبت منه بكل أدب أن يزيلها أو يزيلني من الغرفة.. فوافق حيث كان في الدور الأول طالب من كوريا رحل وترك الغرفة فنقلني إليها، وهكذا كانت الحياة في رامس قيت.

وإذا سُئلت عن مدينة رامس قيت الصغيرة، سأقول: هي مدينة وادعة تداعب البحر، ليلاً ونهاراً مثل جدة تماماً وتقع في آخر بريطانيا على الحدود المتاخمة لفرنسا، وإذا كان الليل صافياً، من الممكن أن ترى أضواء فرنسا.

أما أهلها فهم بسطاء طيبون فيهم سذاجة أهل القرى، كما هو معتاد، ويحبون من هاجر إليهم، ولعل هذه المحبة جاءت من مجاورتهم للبحر، حيث تعودوا منه خاصية المد والجزر في قبول الآخر بكل حالاته.

جلستُ في رامس قيت ١٣ أسبوعاً من أحلى الأوقات رغم عقبات التحاور مع الناس، ووحشة الغربة وضيقة الصدر التي لا يعرفها إلا من مر بهذه المرحلة.

كان باتريك رجلاً مستقيماً لا يتدخل فيما لا يعنيه ويتحدث عن العرب والمسلمين بكل أدب واحترام وإنصاف، وكان "المنيو" الخاص بمطبخه يتراوح بين الأكل الشرقي والآخر الغربي، ولكن المشكلة أن الكميات كانت

.indd 146 20/02/2019 10:20:29

قليلة ولا تكفي لمعدتي من ذات الحجم "العائلي" الكبيرة ولا يملأها إلا الطعام الوفير، لذا لا مفر من استحداث حل عاجل لهذه المعضلة، وقد كان الحل، حيث زوّدت غرفتي "بالأكل الإضافي" لكي أقدمه لمعدتي البيضاء في جوعها الأسود، كنا نتناول العشاء الساعة السادسة تماماً.. وما بين العشاء ووقت النوم ساعات طوال، أحياناً أحتاج إلى محطة طعامية لتوصلني إلى إفطار الغد، وهنا أقول: لم يكن الإسلام هو الحل، بل البسكويت هو الحل!.

لقد عشت مع باتريك أول تجربة لي في السكن مع عائلة أجنبية، ولقد تعلّمت منه الكثير من طبائع الإنجليز وسلوكياتهم وطرائق عيشهم.

* * * *

انتهت المدة المقررة لي في مدينة رامس قيت فبدأت بجزم حقائبي إلى مدينة كاردف حتى أكمل مشواري، كان هناك فراغ بين نهاية الدراسة في رامس قيت وبداية الدراسة في معهد جامعة كاردف، لذا بحثت عن معهد لسد هذا الفراغ، وفعلاً وجدت معهداً اسمه "Calt" بجوار الجامعة في مدينة كاردف، لذا سجلت به ودرست فيه قرابة ثمانية أسابيع.

كان معهداً جميلاً وصغيراً يملكه ويديره رجل وزوجته وفي هذا المعهد درست في فصل فيه ١١ فتاة من مختلف دول العالم، وليس فيه من الرجال إلا أنا.

مرت الأسابيع مر السحاب، بعدها ذهبت إلى معهد الجامعة، حينها قالوا لنا: إن من ينجح في هذا المعهد سيقبل بشكل آلي في الجامعة، ولكن الزمان

.indd 147 20/02/2019 10:20:29

أثبت أن هذا القول مجرد إشاعة متطايرة، لقد درست في المعهد وكان معهداً تجارياً "أي كلام"، ولم نأخذ منه كثيراً من اللغة بل كان برنامج المعهد يعتمد على إضاعة الوقت في الأنشطة التجارية التي لا تعمق اللغة بقدر ما تسرّع الوقت للانتهاء من البرنامج.

في ذلك المعهد تعرفت على أصدقاء خففوا من تعب اللغة أصدقاء مثل عبدالعزيز المحيميد، ومساعد السلطان، وسلطان اليحيى، وإبراهيم إدريس.. وغيرهم.

ومن الجانب الأجنبي في المعهد كان أقرب الناس لي قاضي القضاة في شمال إيران، منصور طالبي، وهو رجل خلوق كنت دائم الصلة به وبكل أفراد أسرته التي كانت ترافقه.

انتهت السنة وكانت نتيجتي "ناجح" ولكن بدرجة متواضعة، في تلك الفترة اختبرنا "الآليس" وكانت النتيجة أيضاً متواضعة، لذا نصحونا ببرنامج اسمه "ما قبل دخول الجامعة" وكانت مدته ثلاثة أشهر... دخلت البرنامج وإذا به لا يقل سوءاً عن غيره من البرامج السابقة، فقد كان يعتمد على المدرسين الذين يبحثون عن عمل في الصيف، من هنا فقد لمّ المتردية والنطيحة والقليل من الجيد.

حقا، لقد دخلت البرنامج وانتهيت من دون أي إضافات تُذكر سوى اكتساب عدد جديد من الأصدقاء من أمثال السيدة الفاضلة عزيزة الحبسي من عُمان والتي تعمل الآن رئيس تحرير مجلة اقتصادية في بلدها، والصديق حمزة الآغا الذي يعمل الآن في قناة الجزيرة في قطر!.

.indd 148 20/02/2019 10:20:29

بعد أخذ كل هذه البرامج ذهبت إلى قسم الصحافة في جامعة كاردف التي صدر قرار ابتعاثي إليها... ولكن دون جدوى، فقد اعتذروا عن القبول وقالوا: توكل على الله امسك الباب.

كنت أعيش في ذلك الوقت مع شاب إنجليزي اسمه تم، كان شاباً كريماً وخجولاً، ولكنه يعاني من شكوك وظنون "تخربط عليه تفكيره".. لقد كان يأتي كل ليلة بشكوك، مرة حولي ومرة حول الناس الذين نعرفهم، ولا زلت أتذكر أنه مرة قرع الباب عليّ ثم قال بصوت مؤدب: يا أحمد، ما العلاقة التي بينك وبين المطربة مادونا؟! تعجبت من سؤاله، ولكن حين تذكرت حالته، قلت له بكل ثقة: هذه مطربة عالمية ومن المستحيل أن أصل إليها، قال: ولكن عندي معلومات مؤكدة تشير إلى علاقتك القوية معها، وأنكما تريدان إيذائي، لأنكما تغاران مني.

حينها، طبطبت على كتفه وقلت: مستحيل أن أحداً يؤذيك، أنت رجل طيّب، وتحب الخير لكل الناس، فكيف نؤذيك، وقتها اقتنع وذهب إلى غرفته.

هكذا كانت أيامي معه كل يوم قصة، ومن يدري لعلي أجمع قصصه معي وأنشرها في كتاب تحت عنوان: "قم بس قم قبل أن يأتيك تِمْ"!

في هذه السنة، أقصد سنة دراسة اللغة، بذلت كل الجهد لتعلّم اللغة، وهي صعبة بالنسبة لشاب مثلي قد كَبُرَ على التعليم ومرحلة التتلمذ ولأجل التعلم عملت كل شيء ممكن! لقد بدأت التعلّم بكل الوسائل.. لذا اتجهت إلى الكنائس لأن أهلها هم من سيأخذون بيدي!

.indd 149 20/02/2019 10:20:29

حقاً، لدي قناعة راسخة أن أهل التدين في أي ديانة هم الناس الذين يخلصون في حماسهم ودعوتهم، لذا يبذلون كل طاقاتهم لخدمة ذلك الهدف، من هنا لم يكن أمامي سوى التواصل مع الكنائس وأهلها وقد وجدتهم للأمانة أفضل الناس خلقاً وأكثرهم حماسة، فتواصلت معهم حتى وصلت إلى مرحلة متقدمة معهم.

تقربت منهم كثيراً، ووثقوا بي ووثقت بهم، لدرجة أنهم عرضوا عليّ السكن معهم في الكنيسة، وقد وافقت، وهذا سر أول مرة أكشفه، ولم يكن يعلم بالأمر إلا صديقي الوفي القريب مني سمو الأمير بدر بن سعود ولم أخبره إلا لقربه مني أولاً، ثم لثقتي به ثانياً، وأخيراً لأن الدنيا حياة وموت، وقد أموت في الكنيسة فلا يعلم عني أحد..!

لن أطيل في أمر الكنيسة التي شملت كل الأنشطة الاجتماعية ـ تماماً مثل التي عندنا ـ فلديهم مثلاً مخيمات الوعظ ودراسة الإنجيل... ولقد استمر هذا الحال لمدة سنة كاملة، خرجت بعدها بتجربة غزيرة ومن يدري لعل الوقت يسمح وأكتبها لتكون شاهداً على رحلة رجل عاش في الكنيسة وهو مسلم شديد الإسلام!.

لقد دخلت الكنيسة وأنا مسلم، واحترموا ذلك، وقبلت الحياة معهم، بشرط ألا يظنوا أنني سأصبح مسيحياً، فمن المستحيل أن أترك ديني وأذهب إلى دين آخر.. لذلك أكبروا رغبتي ووافقوا على شرطي، ومر الوقت وهم معي أو لنقل أنا معهم سريعاً، ولم أستيقظ إلا على أنغام الرحيل، حيث تركت

.indd 150 20/02/2019 10:20:29

مدينة كاردف التي زرعت فيها حلماً لم يدم طويلاً، فقد هبّت رياحُ الرفض، لتقتلعني من هذه المدينة التي كانت حاضرة البحر والحلم والأماني.

وقبل أن أغلق صفحة مدينة كاردف، سأقول سطراً عن هذه المدينة، إنها عاصمة مقاطعة ويلز وأهلها من سلالة مختلفة عن سلالة الإنجليز، كما أنها مقاطعة اشتهرت بمناجم الفحم، حتى جاءت السيدة "تاتشر – المرأة الحديدية" وأجهزتْ عليه، ومن الحماقة أن يتصور أحد أن أهل ويلز يحبون الإنجليز، بل هم يكرهونهم بكل ما في الكره من معنى، وأتذكر أنني سألت أستاذنا الويلزي سؤالاً قلت فيه: لو لعبت إنجلترا وألمانيا.. من تُشجّع؟ فقال: يا "ميدو" – كما هي كنيتي في بريطانيا – أنا أشجع أي فريق يلعب ضد إنجلترا.

ومن باب العلم بالشيء أقول: إن اللغة الأولى في مقاطعة ويلز هي الولشية وليست الإنجليزية، وهي تختلف كلياً عن اللغة الإنجليزية ومن يزور هذه المقاطعة سيرى أن اللوحات الإرشادية دائماً بالولشية أولاً ثم الإنجليزية.

وأهل المقاطعة لديهم إحساس عميق بالانفصال عن بريطانيا، وهم يتطلعون إلى ذلك اليوم، كما أن الحكومة البريطانية لا تهتم بهم كثيراً، من هنا لا عجب أن تكون بعض مشروعات هذه المقاطعة ممولة من قبل الاتحاد الأوروبي، ولا عجب إن سمعتم أن مقاطعة ويلز قد انفصلت عن بريطانيا العظمى!

في ويلز فقط تجد الجيل الثالث من الجالية الصومالية التي جاء أجدادها للعمل في مناجم الذهب، ثم مع الوقت تطوروا فأصبحوا مواطنين مواطنة

.indd 151 20/02/2019 10:20:29

جيّدة ولكنها لا تصل إلى مستوى المواطن الأصلي، إذ يقف اللون حاجزاً بينهم وبين الاندماج مع شرائح البريطانيين الأخرى!

حسناً.. لنعد إلى موضوعنا، بعد رفض جامعة كاردف لي، ضاقت الدنيا بعيني، وأصبحت مثل من يعيش بسجن كبير... لا أعرف ماذا أفعل، وأين أذهب؟!.

كان يسكن معي في ذلك الوقت شاب بريطاني من أصل غاني هو ابن عم السيد كوفي عنان، الأمين العام السابق لهيئة الأمم المتحدة، كان يدرس الدكتوراه.. جلسنا هو وأنا نراسل الجامعات ونبحث في كل مدينة وقرية.. وقد بذل معي جهداً كبيراً لن أنساه مدى الحياة، وبعد كل الرسائل التي بعثناها، بدأت أتلقى الردود، وللأمانة فقد كانت كلها تعتذر وتتأسف، ما عدا جامعتين هما جامعة "قلامورفن" وهي مدينة تبعد عن كاردف حوالى نصف ساعة وجامعة "برمنجهام" ثاني المدن البريطانية من حيث التعدد والضخامة والأهمية!.

بدأتُ بالأقرب وهي جامعة "قلامورفن"، وأخذت أتواصل معهم وطلبوا مقابلتي وحددنا الموعد وذهبت مع أخي وصديقي المهندس عبدالعزيز المحيميد الذي كان نعم الأخ.. ذهبنا بسيارته لأنني لا أملك سيارة، بل دراجة هوائية لا أخرج بها عن محيط مدينة كاردف.

قابلتُ المشرف واسمه هيوم، وكان إيجابياً، وطلب مني طلبات كثيرة منها درجة سبعة في اختبارات الآليس، وهو لا يعرف أن الحظ لم يحالفني

152 .indd 20/02/2019 10:20:29

من قبل، حيث دخلت هذا الاختبار وكل ما استطعت الحصول عليه هو فقط ستة، لذلك صرفت النظر.. أو لأقل هم صرفوا النظر عني.

كان القبول الآخر قد وصل من جامعة برمنجهام ومن قسم العلوم الاجتماعية فرع الإعلام، بدأت أتواصل معهم وقرأت أسماء الأساتذة في القسم فوجدت اسم د. طاهر عباس، لذا فزَّ قلبي من الفرحة، وقلت هذا عربي، لعلي "أشغِّل" فوائد القومية العربية، لتكون سنداً لي، لذا اتصلت فرد عليَّ الدكتور طاهر عباس، وأعطاني موعداً لزيارته في مكتبه في الجامعة.

حجزت في الباص مكاناً، وذهبت إلى برمنجهام، ومن حسن الحظ أن الذي استقبلني في المحطة هو الصديق المهندس عبدالعزيز المحيميد الذي بدأ يدرس الماجستير في إدارة الأعمال في الجامعة نفسها التي سأتجه إليها.

كان الموعد أو لنقل "الموعد الثاني" من أهم مواعيد الدراسة في حياتي، الساعة العاشرة صباحاً، ذهبت إليه، وقابلت الدكتور طاهر عباس وهو شاب في بداية الأربعين بشوش متفائل مشغول دائماً، ومتزوج من سيدة باكستانية لديه بنت وولدان، استقبلني ونظر إلى أوراقي ومسيرتي الدراسية في اللغة، فقال: أنت تستحق القبول، ولكن هذا ليس في يدي، وإنما بيد عمادة القبول والتسجيل، لذا دعنا نذهب إليها.. ذهبنا من مكتبه إلى مبنى العمادة، وأخذنا نتحدث في الطريق فسألته هل تتحدث العربية؟ فقال: لا، أنا ولدت هنا من أصل باكستاني.. وصلنا إلى العمادة، فأخذ يتحدث مع العميد، وأقنعه بي، فقال العميد نحتاج أن تكتب لنا خطاباً على

153 .indd 20/02/2019 10:20:29

شكل توصية منك، حتى نستثنيه من شرط اللغة، كان هذا الشرط صعباً، وأتحدى من يتكفل به في بريطانيا، ومع هذا سخر لي هذا الرجل الذي لم أعرفه إلا قبل لحظات... إنه دعاء أمي الحبيبة الذي يلاحق هذا اليتيم أينما ذهب أو ارتحل.. إنه دعاء يملك خاصية "التعميم" لأنه يعمل في كل الأماكن، ويتوغل في كل المستويات والقرارات..!

ثم عدنا إلى مكتب الدكتور طاهر، حيث كتب توصية جيّدة، ودفع بها إلى مكتب القبول، بعدها غادرتُ برمنجهام واتجهت إلى كاردف.. وما هي إلا يومين حتى جاءني الرد والمباركة بالقبول، وطلب الدكتور طاهر أن يكون هو المشرف على رسالتي!.

اتصلت بالدكتور طاهر عباس وشكرته شكراً طويلاً، فعلمتُ ـ فيما بعد ـ أنه يُقدِّم برنامجاً أسبوعياً في سكاي نيوز اسمه "السياسة اليوم"، وطلب مني أن أكون ضيفاً لإحدى حلقاته، فاعتذرت له قائلاً: إن لغتي ليست قوية إلى حد الخروج في قناة فضائية.

أخذتُ القبول.. وأنا غير مصدق.. أقرأه صباحاً وليلاً، ولا أكاد أصدق.. وبعد أيام جلست أفكر بالخطوة التالية التي تحتاج جهداً ووقتاً.. وكانت على النحو التالي:

صدر قرار ابتعاثي للدراسة على جامعة كاردف.. ولا يحق لي تغيير الجامعة طالما أنا مبتعث، إلا بموافقة مرجعي في الرياض، لذا ذهبت إلى الصديق الأديب عبدالله الناصر الملحق الثقافي في بريطانيا، وشرحت له

.indd 154 20/02/2019 10:20:30

الأمر، فما كان منه إلا الدعم والمساعدة، وأيد تغيير الجامعة ثم رفع الأمر إلى الوزارة في الرياض.

أخذ الأمر شهوراً، ثم جاء الرد بالموافقة، لأبدأ رحلة جديدة من رحلات الدراسة في المملكة المتحدة بعد صدور الموافقة للانتقال إلى جامعة برمنجهام، صرتُ أبحث عن سكن لي – ولو مؤقتاً – فخاطبت الجامعة التي أرسلت لي بدورها قائمة بأسماء العوائل والمساكن التي تستقبل الحالات المماثلة لحالتي وبعد جهد قليل، وجدت أسرة من رجل وامرأة متقاعدين عن العمل، فاتصلت بهما ورحبا بي وبقدومي، ثم أرسلوا لي العنوان.

كانا يسكنان في ضاحية من ضواحي برمنجهام اسمها سيلي هول، وهي منطقة جميلة بديعة، وأهلها يمتازون بالرقي، ومن رقيهم أنهم لا يسمحون بافتتاح أي مكان من أماكن السهر واللهو واللعب في ضاحيتهم.. كما أنني قرأت مقابلة للمطرب العالمي مايكل جاكسون قبل وفاته يقول فيها: إذا تقاعدت سأسكن في منطقة سيلي هول نظراً لنظافتها ورقي أهلها وقبل ذلك وبعده هدوءها اللافت للنظر.

* * * *

حملت حقائبي وذهبت إلى السيد مايك وزوجته، وصلت لهما حوالي الساعة الخامسة مساء، وأخذا يعرفانني عليهما وعلى منزلهما الجميل وكيف أستخدم الحمام وأين غرفتي وأين الركن الخاص الذي أضع فيه أطعمتي، وموعد غسيل الملابس وكيف أحضرها... إلخ.

.indd 155 20/02/2019 10:20:30

كان السكن معهما جميلاً ومريحاً، ولكن هناك عيب واحد في المنزل، وأعني به بعده عن الجامعة، لذا حين أحتاج الذهاب إليها يجب أن آخذ أكثر من حافلة حتى أصل، ناهيك عن الوقت الطويل في الوصول إلى ذلك.

فكرتُ في تغيير هذا السكن الذي سكنت فيه نحو ستة أشهر، لذا ذهبت إلى مكتب عقاري بجوار الجامعة، وكأن هذا المكتب له موعد مع "قدري الجميل".

دخلت المكتب فوجدت رجلاً مبتسماً في أواخر الأربعين، يتحدث اللغة الإنجليزية بشكل واضح وسلس، طلبت منه البحث عن سكن، فأخذ يسأل وأنا أجيب، وما هي إلا ساعة وقد أصبحنا وكأننا نعرف بعضنا من سنين.

رجل في غاية الخلق والأدب اسمه عبدالخالق أو كمال، يطلق عليه الإنجليز كال، وهو إنجليزي من أصل باكستاني.. رحّب بي حين علم أنني من سكان المدينة المنيرة، ووفّر لي شقة من غرفة في حي ليس ببعيد عن الجامعة، ومن إخلاص الرجل معي، عزمته هو وأسرته على العشاء – رغم أنني مثل المشايخ دائماً أنا المعزوم – في مطعم إيراني جميل اسمه "شيراز" فجاء هو وزوجته رمانه وابناه جمال وزين.

سكنتُ في الشقة التي اختارها لي كال، وأخذت أركز على البحث والقراءة، وكانت الشقة مناسبة وملائمة للدراسة والإنتاج، وصرت أقابل المشرف د. طاهر عباس مرة كل شهر.. وفي الستة الأشهر الأولى خصصناها للقراءة في المناهج وقد أوصاني المشرف بالاهتمام الخاص

.indd 156 20/02/2019 10:20:30

بكتب الأستاذ والباحث الفلسطيني المعروف إدوارد سعيد، وقد كان ما طلب.

جلست على هذا الحال في السنة الأولى، اقرأ وأكتب وأسكن في شقة صغيرة في حي "موزلي" ثم رغبت أن أتقدم للحصول على ما يسمى "رحلة علمية" وهي رحلة مخصصة للطالب الذي يدرس دراسات عليا، يأخذها وفق النظام إلى البلد الذي سيجري عليه البحث.. تقدمت إلى الملحقية ثم جاءت الموافقة لذا سأغيب عن بريطانيا قرابة ثلاثة أشهر، وقد نصحني الصديق المسلم صاحب المكتب العقاري عبدالخالق بأن أترك المنزل وأنقل عفشي منه، لأوفر لنفسي مبلغاً كبيراً، فالمنزل كان إيجاره قرابة ٢٥٠٠ ريال شهرياً!

سمعتُ نصيحة صاحبي الإنجليزي، ولكن هناك مشكلة في العفش، أين أضعه؟! فقال عبدالخالق على الفور، ضعه عندي!.

لم أتصور هذا الكرم من ذلكم الرجل، ومن درس في بريطانيا يعرف معنى كلامي، إذ ليس هناك من يساعدك من غير مقابل حتى لو كانت المساعدة فقط هي الاحتفاظ بعفش في المستودع..!

حقًّا، لقد تركتُ الشقة وتركت معها ذكريات جميلة، حيث كان من زوارها الأصدقاء عبدالعزيز المحيميد، وسلطان القحطاني مسؤول تحرير إيلاف، والدكتور العزيز د. مريع القحطاني!.

تركت الشقة ووضعت العفش عند عبدالخالق، وسافرت إلى السعودية، واتصلت على مركز المعلومات في جريدة "المدينة" لجمع المادة العلمية

.indd 157 20/02/2019 10:20:30

التي ستكون مادة البحث وهي المقالات التي كتبت عن أحداث سبتمبر في عدة صحف هي "المدينة" و"عكاظ" من جدة، و"الجزيرة" و"الرياض" من الرياض، و"الوطن" من أبها، و"اليوم" من الدمام، إضافة إلى جريدتي "الحياة" و"الشرق الأوسط" اللتين تصدران من لندن.

ذهبت إلى أرشيف جريدة "المدينة" وحصّلت المادة العلمية ودفّعوني ستة آلاف ريال مقابل هذه الخدمة، ولم تشفع لي علاقتي بالجريدة بتخفيض المبلغ رغم أنني أحد كتابها الأساسيين وليس الاحتياطيين!

جمعت المادة وحفظتها في ملفات يدوية، ثم رجعت إلى بريطانيا، وعرضت المادة على مشرفي د. طاهر عباس فقال: "Go Ahead"، وانطلقت في مراتع البحث أجمع وأقرأ وأحلل وقسمت المقالات وفق موضوعاتها إلى سياسية، واقتصادية، وثقافية... إلخ.

الحقيقة أنني تورطت في الخطة، ولم أفلح حين طلب المشرف مني وضع خطة أولية للبحث، لذا ركبت القطار من برمنجهام إلى مدينة مانشيستر حيث صديقي الدكتور معجب العدواني الذي كان يدرس الدكتوراه في الرواية، وكان أكثر خبرة مني... ذهبت إليه فشاركني الهم الأكاديمي ووضع لي خطة بديعة، فشكرت هذا الصديق الزهراني الكريم الذي ما زال في القلب، ولن يكون آخر صديق زهراني يضع لي خطة بحث كما سنرى في قادم الصفحات.

158 .indd 20/02/2019 10:20:30

بدأت أعمل وأكتب وكان يساعدني في هذه المرحلة أستاذ اللغويات الأديب السوداني الدكتور بشرى الفاضل، وكتبت من البحث حوالي ٣٠ ألف كلمة وفرحت بهذا الإنجاز!.

ها نحن في بداية عام ٢٠٠٨م وأنا في غمرة الفرح بالجهد الذي بذلته، ذهبت إلى المشرف فأخبرني خبراً هز أركاني، حيث قال: يا أحمد، لديّ فترة تفرغ سنة كاملة ولن أتخلّى عنك، لذا واصل بحثك واكتب وسأراك في بداية عام ٢٠٠٩م، ذُهلت وتسمّرت في مكاني، ولم أستطع الرفض أو المناقشة، لأن الرجل له فضل عليّ في دخول الجامعة، وكانت معاملته معي من أرقى ما يكون.

جلست في ذلكم العام بلا مشرف، ولكني كنت أجتهد وأكتب وأحاول أن أخدم نفسي بنفسي على قاعدة Help Your Self. وبين الفترة وأختها أراسل المشرف عبر الإيميل ولكنه يرد عليَّ رداً قصيراً مردداً أن مدة غيابه اقتربت من خط النهاية!

في تلك الأثناء – أعني أثناء غياب الدكتور طاهر عن "الحرم الجامعي" – كلَّف القسم لي مشرفاً ودوداً اسمه الدكتور مارتن، وهو شخص يحب المساعدة ويدعم كل من في القسم!.

والحقيقة أنني أتفاعل مع مارتن لأن أحد الأصدقاء المخلصين قال لي: يا أحمد، لا تفتح على نفسك جبهة جديدة من خلال التعامل مع "مشرفين"، خذها نصيحة مني "طنّش المشرف الاحتياطي" وكن مع مشرفك الأساسي.

.indd 159 20/02/2019 10:20:30

مع الأسف سمعت كلامه، وأخذت أتجاهل الإيميلات التي يرسلها لي، ومع مرور الأيام صار مارتن هو المشرف والمنقذ كما سنرى!

بعد عودة الدكتور طاهر إلى القسم لم تكن الأمور على ما يرام، حيث جاءت للجامعة إدارة جديدة ورغبت في تصفية الحرس القديم والفلول من هيئة التدريس، لذا ضايقت الدكتور طاهر حتى جاء شهر مايو ٢٠٠٨م، فقال لي الدكتور طاهر – كما هو مثبت بالوثائق – بأنه سينتقل إلى جامعة أخرى، وليس أمامي إلا أن أتحوّل معه لتلك الجامعة، أو أبحث لي عن مشرف آخر، والدكتور مارتن هو المرشح الوحيد، ومثل هذا الأمر استهلك وقتي وشلّ دراستي وحيّر أمري.

استمر هذا الوضع قرابة الشهر، ثم أرسل لي الدكتور طاهر يُخبرني أن الأمور عادت كما هي، وأن جامعة برمنجهام منحته ترقية، لذا صرف النظر عن الانتقال، وسيبقى مُشرفاً عليّ، بعدها عملتُ مع الدكتور طاهر وأنجزتُ قرابة عشرين ألف كلمة من بحثي، وهذا مُثبت بالوثائق.

بعدها حاولتُ أن ألتقي بالدكتور طاهر ولكنه كان دائماً يعتذر، وعندما ألححتُ عليه، أخبرني بأنه أستاذ زائر في جامعة أخرى، وطلب مني إما الانتظار أو المُتابعة مع المشرف المُساعد، وهو الدكتور مارتن، وهو رجل نبيل من أصل إيرلندي.

بدأتُ في منتصف عام ٢٠٠٩م مع الدكتور مارتن، حيث عدّل هذا المشرف وغيّر وأعاد، الأمر الذي جعلني أغيّر الخطة من جديد، وأبدأ الكتابة من الصفر، وبهذا صار عندي نسخة جديدة، غير التي كتبتها مع الدكتور

.indd 160 20/02/2019 10:20:30

طاهر، وللأمانة فإن الدكتور مارتن لم يستحسن الخطة القديمة أبداً، لذا حين ذهبت إلى جدة في إحدى زياراتي التقيت الصديق الشاعر العذب أحمد قران الزهراني واكتشفت أن موضوعي قريب من موضوعه، لذا ساعدني في وضع خطة بحث مُحكمة، قدمتها إلى الدكتور فوافق فوراً عليها، وفعلاً بدأت العمل بها معه، وكنت أراه كل شهر مرة، وارتحت كثيراً لتعامله الراقي ودقته في المواعيد وقراءته لما أكتب من فصول.

ولكن في أكتوبر عام ٢٠٠٨م تولت رئاسة القسم الذي أدرس فيه دكتورة اسمها: لويس، وكانت امرأة شديدة وغليظة وغاضبة من القسم، وبالذات من الدكتور طاهر، لذا قامت بتصفية الطلاب، وكان نصيبي أن طلبت منّي أن أغيّر بحثي من دكتوراه إلى Mphil، وهي درجة حائرة بين الماجستير والدكتوراه، عندها رفضتُ رفضاً قاطعاً، ووقف معي الدكتور مارتن وقفة رجل ورفض هذا التحويل، وما هي إلا أشهر وتستقيل الدكتورة لويس، وتعود الأمور إلى ما كانت عليه، ثم توالت الأحداث. وكان الدكتور طاهر قد عاد إلى الجامعة قبل ثلاثة أشهر تقريباً من مغادرة هذه السيدة الحديدية، لكنها بدت عودة شخص لا يرغب في الاستمرار، ودعاني إلى منزله، وأخبرني بأنه يرغب بترك الجامعة، وأن الجامعة فيها عنصرية وحقد وتصفية حسابات. مع العلم أنه على المستوى الرسمي هو المشرف عليَّ، ولكن تواصلي البحثي والإشرافي مع الدكتور مارتن، في تلك الجلسة فقط طلب مني الدكتور طاهر رؤية ما أنجزته من عمل وأعجبه كثيراً.

indd 161. 20/02/2019 10:20:30

عاد الدكتور طاهر مشرفاً عليَّ، وتمت بيننا لقاءات كان فيها متوجّساً من أمر ما، وكان يُقابلني كل شهر تقريباً ابتداءً من عام ٢٠٠٩م، وبالمناسبة هو الوحيد المتخصص في الإعلام داخل القسم، وقد استمرت الأمور جيّدة حتى جاءني من الدكتور طاهر خطاب حزين يُخبرني فيه بأنه ترك الجامعة في ٢٠٠٩/٦/١٥م، وهذا الخطاب هزّ كياني وعثّر أموري، وجعلني أتعب وأُعاني، ثُمّ أرسل خطاباً آخر يُؤكّد فيه أسفه لما سبّبه لي من متاعب ومشاكل وتأخُّر في الدراسة، وفي نهاية الخطاب أحالني إلى الدكتور مارتن، ليكون مُشرفاً أساسياً عليَّ، واصفاً إيّاه بالرجل المُعين والمُساعد.

قَبِل الدكتور مارتن الإشراف، وبالتأكيد أنا لستُ غريباً عليه، لأنه قرأ بحثي الذي أنجزت منه حتى الآن النصف، أي حوالي ٤٠ ألف كلمة، وتعد هذه النسخة الثانية من البحث بعد تعديله في عام ٢٠٠٨م.

ونظراً لأن الدكتور مارتن مُتخصّص في علم الاجتماع، فقد وجد صعوبة في الإشراف عليّ، خاصّة وأن بحثي يتناول الإعلام والصحافة بشكل أخص، حينها اشتكى للقسم من هذه الإشكالية، لذا فوّضه القسم بالاستعانة بمُشرف من خارج الجامعة ليكون مُساعداً له، في تلك الأثناء بحث الدكتور مارتن كثيراً حتى وجد دكتوراً من جامعة مانشستر اسمه دودرا راجندر، إنجليزي من أصل هندي ومتخصص في الدراما.

بدأت أراسل الدكتور دودرا قبل الجامعة، ورد عليَّ الدكتور، بأنه ينتظر موافقة الجامعة ومخاطبتها له بشكل رسمي، وفعلاً خاطبته الجامعة على أن

.indd 162 20/02/2019 10:20:30

يجلس معي ستة لقاءات، كل لقاء لمدّة ساعة، ويقرأ البحث ويوجّه التوجّه الأكاديمي الجيّد.

بدأنا أوّل لقاء أنا وهو والدكتور مارتن في مكتبه في ٢٠٠٩/١٢/٤م. واستمرت اللقاءات حتى شهر مايو ٢٠١٠م، وكان الدكتور دودرا يقرأ البحث فصلاً فصلاً، ويكتب تصويباته وتعديلاته ويشرحها لي في الجلسات، ثم يرسلها لي في الإيميل، وبعد هذا التاريخ رأى الدكتوران مارتن ودودرا أنني جاهز لتسليم البحث والإعداد للمناقشة، وهذا ما حصل، وسلّمتُ الرسالة في أواخر شهر يونيو من عام ٢٠١٠م، وانتظرتُ موعد المناقشة في شهر سبتمبر عام ٢٠١٠م.

والغريب أن المشرفين لم يكونا من أهل التخصص، إلا أن لجنة المناقشة التي ستناقشني كان يرأسها الدكتور دايا توسو وهو أستاذ الإعلام المعروف في جامعة وستمنستر، وهو إنجليزي من أصل هندي، أما الممتحن الداخلي، فكانت الدكتورة لورا شبرد من القسم السياسي في الجامعة، وللأمانة فاللجنة كانت متعاونة معي، ولكن عملي كان ضحية التوجيهات المختلفة للمشرفين، ولك أن تتخيّل رسالة دكتوراه يشرف عليها كل هؤلاء المشرفين، وكل منهم له تخصص مختلف عن الآخر، بمعنى أن كل واحد منهم يجذب البحث إلى حقله وميدانه.

استمرت المناقشة ساعة كاملة، وكان ذلك في رمضان عام ٢٠١٠م ولا تسأل عن الأمل، فقد كان في ذروته، ولم أكن أتوقع "الإخفاق" أو "الرسوب".

.indd 163 20/02/2019 10:20:30

لقد كانت ساعة عصيبة.. وبعد أن مرت، طلب مني رئيس الجلسة أن أخرج ليتداولوا أمر نتيجتي حسب أنظمة المناقشة.

خرجت من القاعة لمدة عشر دقائق وقد كانت أطول عشر دقائق مرت عليَّ طوال حياتي.. ثم جاء المنادي ونادى عليَّ، وقد كان الدكتور مارتن الذي – كان أكثر من مشرف، بل أخاً لي لم تلده السيدة الحبيبة أمي –، كان في غاية الترقب وقال لي: إذا قالوا لك: اخرج! تعال إلى مكتبي وأخبرني.

فعلت ذلك، وجاء معي ودخل إلى قاعة المناقشة لسماع النتيجة وتسجيل الملاحظات، ولكن مع الأسف أن اللجنة في البداية أكدت أهمية البحث، وجدية الباحث، وطلبت تعديلات كثيرة، ومنحتني مهلة لمدة سنة كاملة لإنجازها قبل إعادة المُناقشة!

تقبّلتُ الأمر وبدأتُ مُتحمّساً، وأخذتُ أُراسل الدكتورة لورا، وأستوضح منها ما غمض عليَّ من نقاط في التقرير الذي أعدته عن بحثي، وقد كانت الدكتورة لورا مُتحمّسة لي، وشاعرة بأنني ضحيّة من ضحايا القسم، لذا تواصلت معي لمدة ثلاثة أشهر، ولكن مع الأسف بعد هذه الأشهر تركت الجامعة، وهاجرت إلى أستراليا للعمل هناك.. أما الأستاذ دايا فقد قال لي – وهو عند باب المصعد – إذا احتجت أي مساعدة فأرسل لي إيميلاً وسأكون سعيداً بذلك.

بعد المُناقشة مباشرة؛ تعاطف معي الدكتور مارتن كثيراً، وقال: لن أتركك وحيداً، وبدأ يضغط على القسم، طالباً إعطائي ما أستحق من الإشراف والتدريب، ولكن مع الأسف، اختلف مع الجامعة وتركها، وطلب

.indd 164 20/02/2019 10:20:30

أن يبقى مشرفاً لي حتى وهو خارج الجامعة، في هذا الوقت أغلقت الدنيا أبوابها بوجهي، ومستقبلي الدراسي صار في قطار المجهول، لأن القسم الذي أدرس فيه أُغلق، والطلاب سُرّحوا، ولأني كُنتُ ملحّاً عليهم وهددتهم بالشكوى، سَمحوا للدكتور مارتن أن يشرف عليَّ إشرافاً شرفياً، بمعنى أنه لا يتدخل بشيء.

.indd 165 20/02/2019 10:20:30

.indd 166 20/02/2019 10:20:30

الفصل السادس

المهاوشة في سيرة المناقشة

ها نحن في أغسطس من عام ٢٠١٠م وتاريخ المناقشة اقترب، وكنا في شهر رمضان المبارك، وقد جهّزت نفسي وذهبتُ وأنا مفطر إلى مدينة برمنجهام قبل الموعد بأيام.. ذهبت ومعي المستقبل وكنت واثقاً من النجاح، لذا كتبت مقالاً قبل المناقشة أطلب فيه من القراء الدعاء لي.. بأن أجتاز الامتحان بنجاح.

ذهبت بالقطار ومعي المستقبل والأمل، ثم جهزت نفسي وذهبت إلى قاعة المناقشة وكان المناقش دايا توسو من جامعة وست منستر والدكتورة لورا شبرو من قسم العلوم السياسية في جامعتنا.

جلسنا.. بدأ النقاش.. هما يسألان وأنا أجيب، وكانت ليالي الرسوب واضحة من بداياتها، فقد كانا غير سعيدين بإجاباتي، وظهر عليهما الإحباط، وبعد ساعة ونصف طلبا مني أن أترك القاعة لتقرير النتيجة.

تركت القاعة، ومرت عشر دقائق الانتظار كأنها عشر سنوات، مرّت والراحة راحلة عني، مرّت الراحة وأنا أردد ما يقول المطرب طلال مداح..

.indd 167 20/02/2019 10:20:30

"مرّت ولا حتى تلتفت، مرّت مرّت وعيني اختفت مرت.. ما كنها في يوم، يوم ضحكت لي"... إلخ، مرّت وأنا منهمك في الدعاء وقراءة ما تيّسر من آية الكرسي والمعوذات.. وهكذا مرّ الوقت حتى ناداني أحدهم فدخلتُ فقال الممتحن الخارجي دايا توسو: "شكرا يا أحمد لجلوسك معنا، وقد قررنا أن تعدّل البحث وتقدمه مرة أخرى مع إعادة المناقشة، وأمهلناك سنة كاملة لتفعل ذلك".! هكذا قال.. ثم سكت وانتهت الجلسة.. حاولت معاتبتهم واستجداءهم بأن يعيدوا النظر في أمري فرفضوا، فبكيت كبكاء الأطفال، ولكنهم لم يلتفتوا إليَّ.. لقد قالوها ثم خرجوا إلى حيث يريدون، وللأمانة فقد اقترب مني السيد دايا وقال: إذا احتجت أي مساعدة فأخبرني! أما لورا فقد بعثت لي إيميلاً تطلب مني زيارتها في مكتبها.

وبعد خروجهم.. جلستُ في الغرفة متسمراً أتأمل وضعي وأبكي بدمعي، فالدنيا أمامي ظلام قائم.. وليس أمامي إلا الاستعانة بالصبر والصلاة.

كان من عادة القسم أن يقيم حفلة لكل طالب يجتاز الدكتوراه، ونادراً أن يتقدم طالب لهذا الامتحان ولا يجتازه، لذا وضعوا مائدة فخمة لي وكانوا ينتظرون قدومي لهم مجدّلا في ضفائر بالنجاح.

خرجت من الغرفة وأنا أتماسك وأسير قرب الجدار حتى لا أقع.. مكثت هكذا دقائق ثم استعدت قوتي، وتذكرت أن الصبر من عزم الأمور، فاتخذه سبيلاً وطريقاً، ودخلت صراعاً مع نفسي لكي أذهب إلى الحفلة وأرسم على وجهي علامات التقبل والتفاؤل والأمل، وأرتدي قناع المجاملة الذي أجيده بامتياز!.

.indd 168 20/02/2019 10:20:30

وفعلاً، ذهبت وتظاهرت بأن النتيجة إيجابية، وتحمل خيراً لي، على الأقل سأعرف الآن ماذا أفعل وكيف أبدأ من جديد.

انتهت الحفلة، وركبت القطار، وفي المساء حجزت إلى السعودية وعدت لأكمل العشر الأواخر من رمضان في وطني الحبيب.

صمتُ رمضان وجاء العيد الذي لم أفرح به.. فقد دخلت في نفق مظلم من المتاهات.. فبعثتي أوشكت على الانتهاء.. والتمديد أخذت كل فرصه.. والنفس طابت والعزيمة تضاءلت ولم يبقَ لي إلا الأمل بالله ثم ببعث خاصية التفاؤل في إرادتي لاستعادة ثقتي وعزيمتي..!

لقد دخلت في متاهات كثيرة طويلة وفيرة.. فالبعثة كما ذكرت سابقاً انتهت، والمشرف الوفي معي د. مارتن سيترك الجامعة بعد شهرين، والممتحنة الداخلية د. لورا شبرد التي أبدت استعدادها لمساعدتي ستذهب للعمل في جامعة سيدني في أستراليا.. كل ذلك قبلته، رغم أنه لا يمكن لأحد أن يقبله، ولكن ما قصم ظهري وهدَّ عمري وأتعب بصري أن القسم الذي أدرس فيه سيغلق بعد شهر.

هكذا كانت الصدمات تتوالى، ومع كل صدمة آخذ نفساً عميقاً وأقول: "يا رب وفقني"، فأنا يتيم ضعيف، وهذه الصدمات لا طاقة لي بها إذا لم يكن عون من الله لي.

كان عليَّ أن أفكِّك هذه المصائب مصيبة مصيبة، حتى أستطيع التعامل معها.. لذا بدأتُ آخذ الأمور حسب صعوبتها.. فأخذت أتعامل مع تمديد البعثة وذهبت إلى الملحقية وكان الملحق الجديد الدكتور غازي المكي

.indd 169 20/02/2019 10:20:30

متحمساً معي، ووافق بأن يكتب لمرجعي طالباً إعطائي فرصة أخرى لمدة سنة معتمداً على خطاب لجنة المناقشة الذي أوصى بهذه السنة لي.

كتب الملحق إلى الوزارة، ولكن مرجعي رفض رفضاً قاسياً، ورد مرجعي على الملحق بلغة رسمية شديدة عبر كتاب جاء في آخره قولهم: "ويجب على المذكور سرعة المباشرة والعودة إلى العمل".

في هذه اللحظة زاد سواد الدنيا في نظري، وحاولت أن أزرع الأمل فوجدت ثغرة تحمل التفاؤل.. ولا عجب في ذلك، فالغريق يتمسك بقشة النجاة، لذا سألت الملحق أن يمدد لي لمدة أربعة أشهر وهذه من صلاحياته.. وحتى أضمن موافقته، طلبت من الأستاذ الصديق والصحفي العريق خالد الحسيني، وهو قريب من الملحق، أن يتصل بالدكتور غازي المالكي لدعمي في هذا التمديد، ففعل الرجل بكل نبل.. ووافق الملحق وحصلت على تمديد مدة أربعة أشهر.

نحن الآن في بداية ٢٠١١م وفي هذه الأربعة الأشهر حصلت كل المصائب، فقد ترك مشرفي د. مارتن الجامعة، والممتحنة الداخلية د. لورا شبرد هاجرت إلى أستراليا، والقسم أغلق بالشمع الأحمر، لأن الجامعة تغيّرت في توجهاتها وبدأت تبحث عن العلوم التي تجلب مردوداً مالياً.

* * * *

.indd 170 20/02/2019 10:20:30

لقد أُغلق القسم وتشتتت هيئة التدريس هنا وهناك بعضهم تحول إلى عمل إداري وبعضهم مثل د. مارتن انتقل إلى جامعة أخرى.. وهكذا.. أما نحن الطلاب فلم يبقَ منا إلا خمسة ضُمّوا إلى قسم الاقتصاد السياسي.

وللأمانة فقد كان د. مارتن وفياً شهماً، كما يُعرف عن أهل إيرلندا، وقاتل من أجلي وقال بالحرف الواحد: "لن أتخلّى عنك يا أحمد مهما حصل، حتى لو وصل الأمر إلى القضاء".

لقد كان مارتن مخلصاً ودخل في صراعات مع الجامعة حول طلابه، هم يتهمونه بالإهمال، وهو يرد عليهم بأنه لم يختر الطلاب للإشراف عليهم، بل القسم فرض عليه أكثر من طاقته.. وهكذا مرت الأربعة الأشهر، وأنا ما زلتُ في منطقة التعديل والتبديل في البحث، وبعد انتهاء فترة التمديد كان أمامي خياران لا مفر من اختيار أحدهما، إما أن أستقيل من عملي وأكمل دراستي، أو أن أصرف النظر عن الدراسة التي مكثت فيها قرابة أربع سنوات.. جلست كثيراً أفكر ثم أفكر، أقدّم خطوة وأتراجع مع أخرى.. وأخيراً استقر الرأي على الاستقالة بعد أن جرّبت كل الحلول.

استعنت بالله ثم كتبت استقالتي، وأرسلتها إلى الرجل الذي يقدّر كل جهد ويدعم كل طموح، أرسلتها إلى سمو الأمير محمد بن نايف، مساعد وزير الداخلية للشؤون الأمنية حينذاك، وكانت الاستقالة مكتوبة بلغة مؤثرة، فما كان من سموه إلا أن أمر بأن أعطى فرصة أخيرة تسمح لي بالتمديد لمدة سنة.

.indd 171 20/02/2019 10:20:30

شكرت الأمير شكراً كبيراً، وأوصيت أمي الحبيبة أن تدعو لسموه بأن يوفق مسعاه ويسدد خطاه.

وهكذا أنجزت العقبة الأولى التي ألقت بظلالها على حياتي ومساري الدراسي.

وحتى أكون منصفاً مع نفسي ومع التاريخ.. لقد تشبعت من الإقامة في بريطانيا واشتقت للعودة إلى الوطن، وبدأت أتطلع لذاك اليوم الذي أستقر فيه ببلادي بجوار أمي وأخواتي وأحبابي وأهلي وأصحابي.

جاء التمديد، وبدأتُ العمل بجد واجتهاد.. في هذه المرحلة كنتُ قد أنجزت تقريباً نصف التعديلات المطلوبة مني.. ولكني بلا مشرف وبلا قسم ولا مكتب وبلا رقم جامعي، باختصار أصبحت من "البدون" في جامعة برمنجهام.

وهنا تذكرتُ قصة صديقي وزميل الدراسة في بريطانيا تركي العواد، حارس مرمى نادي الهلال سابقاً، حيث قال لي: يا أحمد، والله مرت عليَّ فترات قبل التخرج كانت مليئة بالإحباط، وقد دارت في رأسي فكرة الانتحار أكثر من مرة كلما مررت بمحطة قطار، قائلاً لنفسي: لماذا لا أرمي نفسي تحت عجلات القطار وأرتاح..؟! وهذا الكلام لا يفهمه ولا يُصدّقه إلا مَن مر بمرحلة تركي ومرحلتي، لأن الإحباط فكر مجرم يشعل خلايا الشر داخل جمجمة الإنسان.

هكذا مرت الأيام عليَّ.. والأكثر إيلاماً، أنه كلما تقدَّم الوقت وطالت فترة دراستي تعقدت الأمور، وزاد توتري. لأني غائب عن البلد سنوات، ومن

.indd 172 20/02/2019 10:20:30

الفشل الذريع أن أعود "منتوف الدكتوراه" حينها سينطبق عليَّ المثل القائل: "طالت غيبته وجانا بخيبته".!

بعد إلغاء القسم أُلحقت بقسم العلوم السياسية والدراسات الدولية، وعُيّن له رئيس جديد اسمه د. كولن تين، وقد راسلته فوراً، وكتبت له طلباً لتحديد مشرف لي بسرعة، لأن الوقت يأكلني، وليس لديَّ إلا تسعة أشهر وتنتهي المدة التي أُعطيت لإجراء التعديلات، فرد الدكتور كولن بخطاب يتعاطف فيه معي، واستمرت مُحاولاتي ومُحاولات الدكتور مارتن للبحث لي عن مشرف يفهم في الإعلام، ولكن كل المحاولات باءت بالفشل، ومر من السنة التي يجب أن أُعدّل فيها التعديلات قرابة ثلاثة أشهر، وأنا أخوض معارك جانبية ليس لها علاقة ببحثي، حتى أحالني رئيس القسم الدكتور كولن إلى الدكتور بروم، وهو يشغل وظيفة رئيس البحث في القسم، ومُتخصِّص في الاقتصاد السياسي الدولي، وهو رجل مشغول جدًّا، ولديه فكرة سيِّئة عن القسم الذي كُنتُ أدرس فيه، ذلك القسم الذي ألغي.

بعد ذلك قابلتُ الدكتور بروم في أول عام ٢٠١١م، وأعطاني نقاطاً سريعة في ساعة جلستها في مكتبه، كما أنه رفض رفضاً قاطعاً أن يُعطيني مُشرفاً، بل قال سنُكوّن لك لجنة من مجموعة من الدكاترة لقراءة عملك، كان اللقاء في فبراير عام ٢٠١١م، ومن يومها وأنا أُعدّل وأزيد وأُعيد في الرسالة، حسب رغبة الممتحنين، وبعدها تقدمتُ للدكتور بروم ليقرأ عملي، ثم يُعطيني موافقة على تسليم الرسالة، لأنها – وبشهادة الدكتور مارتن – قد تمّت وفق طلبات لجنة المناقشة.

.indd 173 20/02/2019 10:20:30

في ذلك الوقت توالت عليَّ الأخبار الحزينة لدرجة أنني سميت هذا العام بعام الحزن، حيث تلقّيتُ في يوم ٥ فبراير خطاباً من الدكتور مارتن يُفيدني فيه رسمياً بأنه ترك الجامعة، وكان هذا خبراً مُحبطاً لي، لأن الدكتور مارتن رغم بُعده عن تخصّصي إلا أنه رجل يُشجِّع ويُعين ودقيق ومخلص، كما أنني في شهر مارس راسلتُ المُمتحن الخارجي، وقال إنه جاهز لمُناقشة بحثي بعد التعديل، وأبدى أسفه لما حصل لي من مشاكل ومتاعب مع القسم، ومن الغريب أن الأمير الصديق بدر بن سعود قابل الدكتور دايا وهو يعرفه جيداً لأنه كان أحد الأساتذة الذين ناقشوا الأمير أثناء الماجستير، وحين المقابلة قال الدكتور دايا توسو للأمير: إنني حزين جداً لوضع أحمد الدراسي، والجامعة بلا شك ظلمت هذا الطالب كثيراً..!

وفي ٢٠١١/٦/١٤م كان أوّل لقاء لي مع اللجنة المُكوّنة من رئيس القسم د. كولن، والدكتور بروم، والدكتور بيتر، وقد جلسوا معي بالضبط ٣١ دقيقة، بعدها انصرف الدكتوران كولن وبيتر لارتباطهما بأعمال أخرى، أما الدكتور بروم فقد جلس معي حتى تمّت ساعة، وكل هذا مُثبت بالأوراق، ومُسجّل بآلة تسجيل، وبعد هذا اللقاء أعطاني الدكتور بروم تقريراً من أربع صفحات، وفي هذا التقرير قلب الدكتور بروم بحثي من أسفل إلى فوق، وهو الوحيد الذي قرأ البحث، أما بقية أعضاء اللجنة فقد قرأوه حين حضوري وتصفحوه بشكل سريع جداً.

بدأت أعمل التعديلات التي طلبها الدكتور بروم، وأعطاني مدة شهرين ونصف لإنجازها، رغم أنها تعديلات غير مُقنعة، وتُخالف في مجملها طلبات

.indd 174 20/02/2019 10:20:30

لجنة المناقشة، بعدها وقعت في دائرة الحيرة ولك أن تتخيّل حالة طالب يمر بهذه المراحل المتتالية في سلم الصعوبة.. إنها مراحل على النحو التالي:

أولاً: أنني طالب تناوب عليه أربعة مُشرفين، ومكث في الجامعة سنة كاملة من غير مشرف، ومع هذا حاول أن يُوازن بين طلبات كل المُشرفين في السابق، والآن من الصعوبة الاستمرار مع بروم لأنه غير متعاون، ولديه تصور سلبي عني وعن كل المشرفين الذين تناوبوا عليَّ، إضافة إلى بُعده عن تخصصي.

ثانياً: كتبتُ بحثي أربع مرّات، وكل النسخ التي أنجزتها لديَّ، وهي على النحو التالي: بحث كتبته مع الدكتور طاهر، ثم بحث آخر مع الدكتور مارتن ودودرا والذي تقدمت به للمناقشة، ثم بحث كتبته حسب مواصفات لجنة المناقشة وقدمته إلى القسم لأخذ الإذن في الطباعة والتسليم، وأخيراً بحث رابع كتبته بناءً على مواصفات بروم ورغباته وطلباته المُناقضة في بعضها لطلبات لجنة المناقشة.

لذلك يبدو أن الليل طويل، والقسم يُحاول أن يُماطل معي، وكل مرّة يطلب شيئاً حتى يمر الوقت، ثم أُتهم بالتقصير، لذلك لم يكن أمامي إلا الاستعانة بالملحق الدكتور الفاضل غازي المكي للتدخل والضغط على القسم؛ لتحديد مشرف أو إرسال بحثي إلى أي جهة وأخذ رأيها فيه، كما أن الدكتور دايا توسو الذي ناقشني في الدكتوراه جاهزٌ لهذه المهمة، وهو رئيس قسم الإعلام في جامعة وستمنستر، وقلت للملحق بالحرف الواحد:

.indd 175 20/02/2019 10:20:30

يا سعادة الملحق، هذا شريط حياتي الدراسية، والأمر لله من قبل ومن بعد، والخيرة فيما اختاره الله، ولستُ بنادم على شيء وضميري مرتاح لأنني ـ والله العظيم ـ بذلت كل جهد حتى أجتاز هذه الدرجة وأعود إلى وطني، ولكن رزقي على الله، وقد فوضت إليه كل أموري.. والله يحفظكم ويرعاكم.

كتبت الكتاب ولا أقول الخطاب ـ كما هو شائع ـ لأنه "كلام مكتوب" كتبته ونسقت مع الصديق العتيق خالد الحسيني وقلت له: إذا زارك الدكتور غازي المكي في ديوانيك العامرة في مكة المكرمة التي تقيمها يومياً في رمضان فأخبرني، فقال: حاضر.. وما هي إلا أيام ويتصل عليَّ الأستاذ الحسيني ويقول: تفضل الليلة سيأتي الدكتور غازي.

تحينت الفرصة في تلك الليلة، وعندما خرج الدكتور غازي من الديوانية لحقته إلى باب سيارته وسلّمته كل أوراقي الدراسية فتفاعل معها كل التفاعل كما سنرى.

بعد أن سلّمت الأوراق إلى سعادة الملحق، انتهى رمضان وعدت إلى بريطانيا وما هي إلا أيام وأتفاجأ باتصال كريم من الملحق يخبرني فيه أن الملحقية خاطبت الجامعة بلغة قانونية بشأن أمر مسيرتي الدراسية وقد أبدت الجامعة تعاوناً كبيراً.. وقد ألقى هذا التعاون بظلاله على معاملة المشرف المباشر على بحثي الدكتور بروم، حيث أرسل لي إيميلاً وطلب أن نلتقي.

وفعلاً تم اللقاء، ودفع إليَّ بمجموعة من التعديلات والملاحظات، وقال: نفذ ما طلبت منك وبعد الانتهاء يمكنك أن تقدم الرسالة للمناقشة.

.indd 176 20/02/2019 10:20:30

وقد كان كل ذلك بيسر وسهولة، حيث اجتهدت في صياغة البحث وترتيبه وتوزيع الفصول وسلّمت البحث إلى القسم في الجامعة، وبدأوا هم في الإجراءات التقليدية من حيث وقت المناقشة ومكانها وأسماء اللجنة التي ستتولى مناقشة البحث.

.indd 177 20/02/2019 10:20:30

.indd 178 20/02/2019 10:20:30

الفصل السابع

من الفراسة قلت: وداعاً للدراسة

بعد كتابة البحث وتجهيزه للمناقشة، بدأتُ العمل بجد وطموح وأمل، كان الدكاترة ياسر جمعة ود. حاتم المرزوقي عضو مجلس الشورى وبعض الأصدقاء من أقرب الناس لي في التواصل والتعديل والتبديل، وحين استقام البحث سلّمته بعد أن ولد من جديد ولادة عسيرة.

سلّمتُه وفرحتُ فرحاً كبيراً بهذا التسليم، وبدأتُ أُجهِّز نفسي للمناقشة، وأستعد لها، واشتريت كتاباً مفيداً، لا يوجد في ثقافتنا العربية مثله، اسمه "كيف تنفذ مناقشتك" بالإنجليزي.

جهزتُ نفسي، وكان نظام الجامعة ينص على أن الطالب الذي سبق وأن أخفق في المناقشة "مثل حالتي" يجب أن يختبره نفس الممتحن الخارجي، أما الممتحن الداخلي فقد اجتهد الدكتور مارتن في البحث عن ممتحن داخلي قريب من تخصصي، وهو الدكتور روز أستاذ النظرية الاجتماعية في القسم، لأن الدكتورة لورا شبرد تركت الجامعة وهاجرت إلى أستراليا!.

.indd 179 20/02/2019 10:20:30

عرضتُ الأسماء على المشرف المباشر لي ألا وهو الدكتور أندرو بروم، عرضت عليه الأسماء فوافق، وحددوا موعداً للمناقشة في ٢٨ إبريل من عام ٢٠١٢م.. وبعثتي ستنتهي في ٣٠ إبريل ٢٠١٢م.

هذه المرة كنتُ جاداً ومصراً، وتمثلتُ مقولة الشيخ شكسبير "أكون أو لا أكون.. هذا هو السؤال"، ولا بد أن تكون الإجابة حاسمة للجدل الدائر بيني وبين نفسي الذي استمر لأكثر من ست سنوات حول إمكانية حصولي على الدكتوراه. بدأتُ أستعد، ونظراً للبُعد الاجتماعي الذي أحظى به في لندن وبرمنجهام وكثرة المعارف والأصحاب والأحباب، فقد قررت كالفرق الرياضية أن أعسكر في مدينة صغيرة لمدة شهر، مدينة لا أعرف فيها أحداً، والوجوه العربية والإسلامية فيها قليلة الحضور والمشاهدة.

وفعلاً وقع الاختيار على مدينة شيستر، حيث يعمل صديقي الوفي عبدالخالق (كال)، الذي يعمل في النهار بالبنك وفي المساء يتفرغ لعمل مناقشة لي تدريبًا على المناقشة.. ذهبت إلى شيستر وأقمت في فندق جيّد وأخذنا عبدالخالق وأنا نقرأ كتاب المناقشة ونتدرب على أسئلتها وطريقة الاستفهامات فيها.

مكثنا على هذه الحالة شهراً، وبعدها ذهبت ومعي المستقبل، لأداء الامتحان.

وصلت إلى برمنجهام وقد سجل لي عبدالخالق في MP3 كل حواراتنا وأبرز الأسئلة وطريقة إجابتها، وكنت طوال الوقت أستمع إلى التسجيل حتى أتعايش مع جو المناقشة وأتآلف مع محتوياتها.

.indd 180 20/02/2019 10:20:30

وفي صباح يوم الامتحان الجمعة ٢٠١٢/٤/٢٨م اتصلت بالسيدة العظيمة أمي لولوة العجلان وطلبت منها الدعاء، لأن كلها ساعات وبعدها إما أن أكون من الناجحين أو أكون من المخفقين.

كانت رغبة القسم كله واضحة بأن أتجاوز المناقشة بنجاح.. فبقائي في الجامعة مشكلة ورسوبي مشكلة.. لذا هم كانوا يحيطون بي ويدفعونني إلى الأمام دفعاً.

وأتذكر أن مشرفي الأخير د. بروم أرسل لي إيميلاً يقول فيه: سأكون في مكتبي بانتظارك قبل المناقشة بساعة حتى أزيل أي لحظة قلق تنتابك في الدقائق الأخيرة، أما مارتن فقد كان من الصباح معي يطمئنني ويبشر ويهدئ!.

اقتربت الساعة وجاء الموعد وأنا في حالة خوف يهز أركاني.. وقبل بدء المناقشة بدقائق، ونحن بجوار طاولة الشاي والقهوة نأخذ نصيبنا منها، جاء القدر الجميل الذي جعلني وجهاً لوجه مع الممتحن الداخلي د. روز فرحّب بي وعرفني بنفسه، لأن هذه المرة الأولى التي أقابله فيها، وحين رأيت أريحيته وابتسامته تجرأت وسألته إن كانت رسالتي قد أتعبته في قراءتها، وتتبع فصولها؟ فقال: والابتسامة تعلو وجهه: أبدا، لقد كانت رسالة جميلة واستمتعت في قراءتها وكثير من المعلومات التي فيها جديدة عليَّ.

هذه الإجابة جعلتني "أركد قليلاً"، وليس كثيراً، لأن من بيده الحل والربط هو المشرف الخارجي الذي سبق وأن رأيته ورآني في موقف الرسوب في المناقشة الماضية.

.indd 181 20/02/2019 10:20:30

جلسنا، وبدأت المناقشة فسألني الممتحن الخارجي د. دايا توسو قائلاً: ما بك قلق يا أحمد، وهذه المرة الثانية التي تدخل فيها مثل هذا الامتحان؟! قلت له: يا دكتور من يسقط في حفرة قد يصاب بالخوف من كل الشارع، التي تقع فيه هذه الحفرة.

ضحك قليلاً، ثم قال: "ولكن عملك هذه المرة جديرٌ بالاحترام والتقدير والقبول".

هذه العبارة جعلتني أطمئن كثيراً، وبدأتُ أجيب، وهم يسألون. حتى مرت ساعة ونصف بعدها، سألني الدكتور دايا توسو قائلاً: "الآن يا أحمد، أليس معنا حق عندما رسبناك في المرة الماضية".

قلت ـ بلا تردد ـ نعم يا دكتور، معكم كل الحق، بعدها طلب مني مدير الجلسة أن أترك الغرفة لمدة عشر دقائق، حتى يُقيّم أدائي في المناقشة، خرجت وكانت العشر الدقائق كأنها عشرة أيام.. وبعد انتهاء الدقائق جاء المنادي البشير وناداني قائلاً: تفضل، دخلتُ وأنا أرفع يدي إلى السماء داعياً الواحد القهار التوفيق والنجاح.

سألني الممتحن الخارجي: هل تدعو؟ قلت نعم: فقال: وبماذا دعوت؟ قُلت: دعوت الله أن أتجاوز المناقشة لمنطقة النجاح، حينها قال: مبارك عليك.. قد نجحت!.

عندما قالها لم أصدق، فقلت: أرجوك، أعد ذلك أعده، فأنا غير مصدق.. وأعادها وهو يضحك، فقلت: مستحيل، أظنني في حلم ولست في علم، فقال: يا أحمد، بل أنت في منتهى العلم وليس الحلم!.

182 .indd 20/02/2019 10:20:30

لم أتمالك نفسي وقتها وطلبت أن أذهب وأقتحم الطاولة التي بيننا وأحضنهم فرداً فرداً، رغم أن هذه عادة غير مألوفة عندهم، إلا أنهم وافقوا وهم يضحكون.. خرجنا من الغرفة بعد أن أعطوني النتيجة وهي "نجاح مع تعديلات بسيطة على الرسالة"، وأمهلوني شهراً لفعل هذا التعديل.

خرجنا من الغرفة فوجدت د. مارتن بانتظاري فقفزت نحوه بكل قوة وجنون، وكأنني لاعب كرة يسجل هدف الفوز في الدقيقة ٩٠، قفزت نحوه وبادلني هو نفس الفرحة ونفس القفزة.. ثم ذهبتُ إلى رئيس القسم د. بروم، وعملت الحركة نفسها ولكن مع زيادة في القفز لأن بروم كان طويلاً طولاً فارعاً، وكأنه نخيلة من نخل جدي عرفج السادس عشر في مدينة بريدة.

الحقيقة، أن كل من في القسم فرح لي، أولاً لأنني تعبت مع القسم وهو تعب معي، ثانياً، لأنني أقدم يتيم في العالم، وهم يعرفون ذلك.

بعد الخروج من قاعة الاختبار اتصلت فقط على الوالدة رحمها الله وأخبرتها بنجاحي وطلبتُ منها أن تبقي الأمر سرياً حتى يوم الاثنين، لتخرج الشهادة الحقيقية لأنني ما زلت غير مصدّق.. وقد استجابت لطلبي لأنها لا زالت تذكر حين توهمتُ أنني نجحت وأنا في الصف الخامس الابتدائي ووزعت الحلوى.. وبعدها اكتشفت أنني الراسب الوحيد في الفصل!.

أما قصة إعلان نجاحي فهي قصة تروى، فقد انتهيتُ يوم الجمعة ٢٠١٢/٤/٢٨م، وأحببتُ أن أعرف من هم الحاسدون ومن هم المتفائلون، ومن هم المحبطون، لذا بعد المناقشة بيوم أعني صباح السبت كتبت في

.indd 183 20/02/2019 10:20:30

"تويتر" و"الفيسبوك" وكل مواقع التواصل الاجتماعي أن اختباري سيكون يوم الاثنين الموافق ٥/١ الساعة العاشرة صباحاً.

حقًّا، لم يبقَ أحد من الذين أعرفهم إلا دعا لي بالتوفيق والنجاح، آلاف مؤلفة من القراء والأحباب والأصدقاء والأصحاب.. صحيح أن بعضهم عاتبني على نشر خبر المناقشة خوفاً عليَّ، على افتراض أنني قد أرسب، وهذه نصيحة مثمرة لو كان الأمر حقيقة وليس ترتيباً مسبقاً.

أخذ الناس في "تويتر" ورسائل الجوال منذ صباح الاثنين يسألون وينتظرون، حتى قال صديقي النابه الذي يدرس الدكتوراه في بريطانيا علي العايض في "تويتر": "أول مرة في التاريخ تكون مناقشة رسالة دكتوراه شأناً عاماً"..!

هكذا مضت الأمور.. حتى جاءت ساعة النشر، وفي الساعة الواحدة بتوقيت لندن نشرت الخبر فانهالت عليّ التهاني والتبريكات فغرق الجوال و"تويتر" والإيميل و"الفيسبوك" في بحر هذه الرسائل المدوية.

.indd 184 20/02/2019 10:20:30

خلاصة الدراسة

مَقامُ الشُّكر لمَن دَعموني في شَهَادة العُمْر

شَهادة العُمْر، هي دَرجة الدّكتوراه التي حَصلتُ عَليها يَوم الاثنين المَاضي، ومِن هُنا سأشكُر كُلّ مَن أسَهم مَعي في صنَاعة النّجاح "الأكاديمي"، وذَلك لسَببين؛ أوّلهما: أنّ مَن لا يَشكر النّاس لا يَشكر الله، وثَانيهما: لأنّ درَاسة الدّكتوراه صَارت شُبهة الآن، حيثُ رَأينا كَثيراً مِن الدّكاكين والشُّقق التي تَبيع الشّهادات، لذَا مِن الوَاجب أن أشكُر النّاس؛ الذين أسَهموا مَعي في تَوجيه البَحث، ليَكونوا شهُوداً عَلى أنّ المواطِن أحمد العرفج بَذَلَ كُلّ مَا في وسعه، ليُقدّم مَا يَستطيع مِن بَحثٍ ودرَاسة واستقصَاء للمَعرفة بشَكلٍ جَاد..!

حَسناً.. بَدأتُ البَحث مَع مُشرفي الأوّل د. طاهر عباس – وهو إنجليزي مِن أصل بَاكستاني – وعَملنا معًا، وكَان الأستاذ الصّديق جَمال خَاشقجي قَد رشّح لِي الصّحفي القَدير عبدالوهاب بشير، للاستفَادة مِن خِبرته الصّحفيّة.. وتَمّ هَذا فِعلاً، حيثُ اقتَرَحَ عليّ الثّاني مَوضوع البَحث بعنوَان: "كَيف وَصَف الكُتّاب في الصُّحف السّعوديّة أحدَاث الحَادي عَشَر مِن

.indd 185 20/02/2019 10:20:31

سبتمبر"، في هَذه المَرحلة كُنتُ أكتُب والدّكتور الفَاضل بُشرى الفاضل يَتولّى المُراجعة والتّصحيح؛ بحُكم خِبرته الطّويلة في تَرجمة النّصوص..!

وبَعد سَنة رَحَلَ المُشرف لجَامعة "استنبول"، وجَلستُ سَنة كَاملة من غَير مُشرف، بَعدها جَاء الفَرَج، حيثُ أشْرَف عَليّ رَجُلٌ نَبيل – في غَاية الحماسة – إيرلندي الجنسيّة اسمه مارتن، وبَدَأ بخطّة جَديدة بَعد أن انتصفتُ بالبَحث، وطَلَب منّي إلغَاء العَمَل السّابق، وبَدأتُ مَعه صَفحة جَديدة.. في هَذه المرحلَة بَدَأ تَعامُلي مَع رَجُل كَبير السّن، عَميق الرّؤية كَثير التّجربة اسمه عثمان حمور، وبَعد كِتَابة ٤٠ ألف كَلِمَة اصطدمتُ بالجِدَار.. لذَا غيّرت الخطّة.. وكَان الفَارِس هَذه المرّة الذي أنقذني هو الرّجُل الشّاعر النّبيل أحمد قران الزهراني.. وهو – والحَق يُقال – أسدٌ في صيَاغة خطَط مَناهج البَحث في الدّرَاسَات الإعلاميّة.. حَيثُ رَسَمَ لِي خطّة وبَدأتُ العَمل عَلى تَنفيذها، وكَان البَحث قَد تَشعّب، لذَا استعنتُ بالصّديق الصّحفي طارق عبدالحميد؛ ليُساعدني في جَمْع المَعلومات عَن الصّحافة السّعوديّة، والقَاعدة، وتَاريخ العَلاقَات السّعوديّة الأمريكيّة، وبَعد جَمْع المَعلومات كَان لابد من الاستعَانة بالدّكتور الإحصَائي عز العرب، وفعل الجَداول اللازمة عَلى أكمَل وَجه..!

بَعد ذَلك دَخلتُ في مَرحلة تَرتيب البَحث وتَجهيزه، حينها شَعَرَ المُشرف مارتن بأنّه يُريد مَن يُساعده في الإشرَاف، نَظراً لتنوّع مَوائد البَحث، لذَا استَأجَرَتْ الجَامعة الدّكتور راجندر؛ المُتخصّص في الإعلام من جَامعة

.indd 186 20/02/2019 10:20:31

"مَانشستر"، وفعلاً استَأجَرَت الجَامعة هَذا المُتخصّص، وبَدَأ يُعدّل ويُبدّل في البَحث؛ حتّى صَار بَحثاً مَعقولاً.

ثُمّ تَقدّمتُ للمُناقشة في أغسطس ٢٠١٠، ولَكنّي – مَع الأسَف – أخفَقْت، وأوصَت لَجنة المُناقشة المُكوّنة من: المُمتحن الخَارجي الدّكتور دايا من جَامعة "وست منستر"، والدّكتورة لورا شبرد من جَامعة "برمنجهام"، أوصَت بتَعديلات شَاملة، وإعطَاء الطّالب فُرصة سَنة، مَع إعَادة المُناقشة..!

هَذه النّتيجة – في البدَاية – حَطّمتني، وللحق، هزّت ثقتي بنَفسي، مَع أنّهم كَانوا عَلى حَقّ في مُلاحظاتهم.. وطَلبوا منّي تَعديلات جَوهريّة يَجب أن أنجزها في مُدّة سَنة، لذا استعنتُ بفَريق من أصدقَائي؛ الذين هُم الأقرَب إلى الحس الأكَاديمي، ولذلك ظَهَرَ مَعي في هَذه الفَترة مَجموعة كَبيرة من الأقويَاء في البَحث، من أمثَال: د. مريع القحطاني، والأمير بدر بن سعود، ود. أحمد الكويتي، وبسام عمقية، ود. عبدالله بن ربيعان، ورزان بكر، ود. حاتم المرزوقي، ود. أسامة النصار، ود. خالد باطرفي... وغَيرهم كَثير؛ ممّن لَديهم الحس الأكَاديمي، حَيثُ أسهَموا مَعي في مُراجعة البَحث وتَغيير بَعض سَلبيّاته..!

بَعد ذَلك ظَهَر في بَحثي رَجُل وَاثق من مَناهج البَحث، ومُتخصّص في تَحليل المَضمون اسمه د. ياسر جمعة، فقَرَأ مسودّة البَحث، واقتَرَح وأضَاف وحَذَف، وتَم الأمر حَسب مَا يُريد المُشرف.. ولَكن يَا فَرحة مَا تَمّت، فقَد تَرَكَ المُشرف مارتن الجَامعة، لذا شُكّلَت لَجنة لمُتابعتي يَترأسها رَئيس القِسم د. بروم – وهو رَجُلٌ جَاد ومَشغول دَائماً، وحَازم مَع طلّابه – من هُنا

.indd 187 20/02/2019 10:20:31

أصبَحتُ مُحاطاً بتسعةِ مُشرفين، كُلٌّ مِنهم يَحشرني في زَاوية، وكَأنّي "قِط" يُريدون القَبض عَليه، وأصبَح رَأسي الصّغير مَليئاً بالأصوَات والتّداخُلات، وكَأنّه وَرشة حدَادة.. وأتحدّى إذَا كَان هُناك طَالب "دكتوراه" تَداولته تسع أيدٍ؛ كُلّ يَدٍ بمُواصفَات خَاصّة، وبَعد أشهُر مِن هَذا الحَصَار قُدّم البَحث للمُناقشة، واجتزتُها بنَجاح والحَمد لله..!

حَسناً.. مَاذا بَقي؟!

بَقي القَول: إنّني أطَلْتُ الشّكر، لأنّ كُلّ وَاحد من هَؤلاء يَجب أن أشكُره، حَيثُ - كَما يُقال - "مَن عَلّمني حَرفاً ازددتُ لَه ودًّا"، ثُمّ إن شَهادة الدّكتوراه صَارت مُثيرة للجَدَل؛ في طَريقة الحصُول عَليها، ولله در أستَاذنا الأكاديمي العَريق الدّكتور عبدالرحمن العرابي، الذي تَبنّى قَضيّة شَهادات "سُوق الصَواريخ المُشتراه"، وأخَذَ يُدافع عَن العِلْم الحَقيقي لَيلاً ونَهاراً..!

.indd 188 20/02/2019 10:20:31

الخاتمة

الآن.. ها أنا ألملم عفشي، استعداداً للرحيل، وقد حاولت في السطور الماضية أن أكتب ما عشته من سنواتي في طلب العلم، هذه السنوات التي حولتني من طالب علم إلى عامل معرفة.

لقد كتبتُ تجربتي بكل أمانة وصدق.. لأنني من دعاة الاقتصاد في الكذب، بمعنى أنني إذا لم أكن مضطرا إليه اضطراراً فلا أستخدمه.. وأنا هنا لا أظني أحتاجه، ومن يقرأ سطوري بوعي سيدرك أن كمية الصراحة المتوفرة في النص تلغي أي احتمال للكذب.

إنها رحلتي مع الدرس والتحصيل والدراسة والتحليل، إنها رحلة استمرت لأكثر من أربعين عاماً أكتبها في مجموعة وريقات ليقرأها من يشاء، وله كل الحق في التصديق أو التكذيب، فواجبي هنا أن أكتب الحكاية وأنت أيها القارئ تكمل القصة إلى النهاية، صحيح أنني تخرجت وحصلت على الدكتوراه.. ولكن رحلتي في المعرفة الآن تستعد لتنطلق من البداية، حتى لا أصبح مثل شيخي الشعري الكبير أحمد الصافي النجفي حين قال:

أصبحتُ "أستاذاً".. فزدت جهالةً

فلقد فقدتُ تواضع التلميذ..

حقًّا، لن أفقد "تواضع التلميذ"، طالما أنني على قيد الحياة.

.indd 189 20/02/2019 10:20:31

[illegible].indd 190 20/02/2019 10:20:31

فهرس الموضوعات

م	اسم الموضوع	رقم الصفحة
	مع شديد المراس أشم المعطاس(من المهد في طريقه إلى اللحد)	٣
	فخور بصديقي "التنبل"	١١
١	من المهد في طريقه إلى اللحد	١٥
٢	المعهد العلمي والكفاح السلمي!	٤٥
٣	من جامعة إلى جامعة والعين دامعة!	٧٥
٤	مكّة ليس منها فكّة	١١٧
٥	الدكتوراه.. من مدينة إلى مدينة ويا عقل لا تتعب	١٣٣
٦	المهاوشة في سيرة المناقشة	١٦٧
٧	من الفراسة قلت: وداعاً للدراسة	١٧٩

.indd 191 20/02/2019 10:20:31

خلاصة الدراسة ١٨٥
مَقامُ الشُّكر لمَن دَعمونِي في شَهَادة العُمْر ١٨٥
الخاتمة ١٨٩

.indd 192 20/02/2019 10:20:31